1

obeikandl.com

السّوط والصّدى

روايــة

عائشــة بنـور

منشورات وزارة الثقافة

obeikandl.com

الإهـداء:

إلى كلّ من عانى من مأساة الفتنة ودفع حياته بين فكّيّ السّلطة والتطرّف

عائشة

obeikandl.com

في البدء....

لا يسمى الإبداع ابداعا إذا لم يضف إلى صرح الفن لبنة جديدة وكأنه يمنح للحياة حياة أخرى، وإذا لم يصل إلى كشف أسرار اللعبة الخفية المؤثرة في الواقع و الأحداث...

ولعل هذا ما يميز رواية "السّوط والصّدى" عن غيرها مما كتب عن فاجعة الجزائر خلال العقد الأخير من القرن الماضي.

وما سمي بالأدب الاستعجالي أو التقريري، لأن هذه الرواية تغوص في أعماق المأساة من حيث أنها صراع أفكار قبل كل شيء، و تشير إلى جذور هذا الصراع ودوافعه ومنبته و مناهله...

ومن هنا نعتبرها رواية فكرية، تضيء أهم زاوية في قضية التطرف..العنف.. الجماعات المسلحة.. و كأنها تريد القول أن الأزمة مع الآخر فكرية قبل أن تكون سياسية أو أمنية..

وهي نظرية يقبلها الواقع العالمي، والتوجهات الفكرية المعاصرة التي ينادي بها المفكرون في العالم موضوع حوار وصراع الحضارات أمثال فوكوياما، صموئيل هينتغون وآخرين.

الروائي/ رابح خدوسي

obeikandl.com

قال الشاعر:

تحمّل عظيم الذنب ممن تحبّه
وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالمُ[1]

obeikandl.com

[1] أبو الفضل بن الأحنف.

– 1 –

"كلّما أبحث في نفسي عن القوّة التي تقيّدني، كلّما أشعر أنه ليست لي قوّة غير إرادتي، من هنا أشعر شعوراً واضحاً بحرّيتي ."

بوسوي

لم أنم، لقد بت في العراء، ورأيت، البارحة، في المنام ما يشبه وجهه الذابل، كما كان وجه جدّتي زهور شاحباً وهي تموت، أندفع نحوه راكضة، وأتعثر في أسمال بالية ومهترئة، أمد يدّي وأحاول أن أمسك بيدّه، لكنها تنسحب مني باردة، وأحاول مرّة ثانية أن آخذ يدّه في يدّي ونركض معاً في الروابي، بعيدا عن أعينهم، بعيداً عن أوامرهم، بلا خوف، أن

obeikandl.com

يهمس في أذني، وأصابعه تلعب بخصلات شعري، يضمّني إليه، وانفلت من بين أحضانه، ضاحكة، وهو يجري خلفي على رمل حار، أو يتبعني بنظراته من بعيد، ويناديني، لكن المسافة بيني وبينه كانت تطول وتطول، وهو يبتعد عني، أناديه، وقد بحّ صوتي، وكأني أطارد شبحا في حلمي وأصرخ:

- لا ترحل، لا ترحل.

لم يلتفت إليّ، ولم يرجعه صدى صوّتي، وفي الصباح الباكر، نهضت من فراشي متوعّكة، ألقيت نفسي بإعياء على الكرسيِّ، وقبالتي مرآة كبيرة تعكس صورتي، وملامح وجهي الذابلة، تداهم مخيّلتي صور الأحداث المروّعة، صور الدّم والعويل في كل مكان، وانتابتني حالة من الهلع والرعب والذعر، بحثت عن وجهي في المرآة، خلت نفسي عجوزا تقدمت في السّنّ، بتجاعيد حزن تحكي حياة عمر طويل.

أذكر أنني التقيت به في الطريق على غير موعد، في أحد شوارع المدينة العتيقة، وبالضبط في شارع ديدوش مراد بالعاصمة، وبنفس الطريق، كنا نمشي جنبا إلى جنب، دخلنا المدرسة معا، حينها عرفت أن هذا الرّجل الأسمر يُدرس في نفس المدرسة التي أدرِّس بها، ونفس القسم يجمعنا، ذاك ما قالته لي زميلتي ميمونة.

8

في البداية، لم أهتم كثيرا لغمزاتها، وهمساتها، وأردّ على كلامها ببرودة، وأحيانا باللامبالاة، ومع مرور الوقت، اكتشفت نفسي فيه، ولكنني لم أستطع أن أعبر لها عن كلّ ما يختلج في نفسي من عواطف وانفعالات نحوه.

كان الأستاذ رياض يقطن، سابقا، بإحدى القرى النائية بالغرب الجزائري مثلي تماما، جاء إلى العاصمة بحثا عن العمل، واستقر به المقام كمدرس في إحدى الثانويات بحيّ القصبة، أما أنا فقد جئت إلى القصبة للعيش مع جدّتي زهور...

لقد تعرفت عليه بنفس المؤسسة التي أشتغل بها، متفان بعمله، وكله حيويّة ونشاط، ولا أنكر أن ما زاد جاذبيته لي هو تلك الابتسامة التي لا تفارق محيّاه، رغم انطوائه، ومن شدّة حيائه يجري الدّم في وجهه، لكنه كان يبادر إلى تحية كل من يلقاه في طريقه، شيمة أهل البادية.

كان في نظري رجلا ليس كغيره من الرّجال، مسالما ومتسامحا، رجلا في الأربعين من العمر، متوسط القامة، وأسمر اللون، بملامح حادة، ووجه طويل، أنف متوسط الحجم، عينان غائرتان تومضان دفئا، وشعر وشوارب خفيفة، وابتسامة ساحرة، وفوق كل ذلك أستاذا في الشريعة، ندرس معا بمدارس الحيّ العتيق، بحيّ القصبة العريق.

9

هذا الحيّ الذي يشبه المتاهة في تداخل أزقته الكثيرة، أهمها زنيقة العرايس، وزنيقة مراد نزيم بك، والقصبة كذلك هي تلك القصور الجميلة، كقصر مصطفى باشا، وقصر الصوف، وقصر دار القادوس، وقصر سيدي عبد الرحمن، ودار عزيزة بنت السلطان...

معالـم نقشت على جدرانها حكايات الثوار، والأبطال والمجاهدين والشهداء، وجرت بها أحداث كثيرة كانت نقطة تحوّل في التاريخ، وبأحد بيوت هذا الحيّ العريق، تفتحت زهرة مـن زهور الجزائر المجيدة، التي تفخر الجزائر بها، إنها جميلة بوحيرد التي قالت وهي تصرخ بأعلى صوتها أثناء المحاكمة :

ـ لا يحقّ للضبّاط الذين عذبوني على هذا الشكل، إذلال المخلوق البشري جسدياً على شخصي، وأخلاقياً على أنفسهم هم؟

كانت جدّتي زهور تخبرني كل ليلة عن هذا الحيّ العريق، وعن الأحداث التي جرت به، لأنها كانت مناضلة في جبهة التحرير الوطني ، وكيف كانت تنقل الرسائل خفية من زنقة إلى أخرى، وكيف كانت ترد على ملاطفة ومغازلة المظليين لها.

كان حيّ القصبة مخبأ مهمّا للثوار والمجاهدين، ومسرحاً للعديد من العمليات البطولية، و فيه اقترف المستعمر الفرنسي أبشع جرائمه الوحشية، وحينما أقول القصبة، أتذكر حسيبة بن بوعلي، وعلي لابوانت، والطفل ياسف عمر.

10

في ذلك المساء بالذات، تسارعت الأحداث في المدينة، وتناهى إلى سمعنا أنه قريبا ستعلن حالة الطـوارئ في البلاد، وأن الأمر يوصف بالكارثي في وسائل الإعلام الأجنبية، اغتيالات في وضح النهـار، طالت الصحفي والمثقف والشرطي، وتنوعت بين الذبح والاختطاف والاغتصاب الجماعي لفتيات في عمر الزهور، كنا نبكي على من نعرف ومن لا نعرف، ونتألم لاختطاف ذاك، وغياب آخر، لـم نكن نفهم ماذا يحدث؟ و بدأت الأمور وكأنها تتضح لنا بعد أن تعودنا عليها، نعيش تفجيرات من حين لآخر، وفي أماكن متفرقة، طلقات رصاص كثيف ليلا، وضجة كبيرة نهارا، حركة مستمرة ومشبوهة، ورعب في كل مكان، وجوه ملثمة وصوت أقدام متسارعة، تهرول في كل اتجاه، واستمر الحال هكذا مدّة شهـور...

وفي كل ليلة ننام على دويّ انفجار قوّي، وكل صبح ننهض على بقايا أشلاء بقيت عالقة في ليل دامس، خلف الحيطان العالية.

منذ غداة ذلك اليوم المشؤوم الذي تناقلت فيه وسائل الإعلام خبر اغتيـال إحدى عشرة معلمة[2] ذبحاً، إحداهن كانت

---

[2] ـ اغتيال 11 معلمة ومعلم واحد من طرف مجموعة إرهابية ببلدية عين آدن بدائرة سفيزف (سيدي بلعباس، يوم 27 سبتمبر 1997) أثناء عودتهم من العمل.

حاملا في شهرها الرابع، لم تشفع لهن صرخاتهن ونحيبهن وتوسلاتهن الرحمة، وتركن يسبحن في بركة من الدماء، ومن وقتها صار رياض يتحاشى الحديث معي أو النظر إليّ، وظلّت أخبار الفواجع الدامية تصل مسامعنا كل يوم.....

في إحدى الأمسيات من شهر أوت، جلست بالقرب من الربوة الخضراء التي كانت تجمعني مع رياض في وقت مضى، تحت ظلال أشجارها الوارفة، أتأمل المياه المتدفقة عبر المنحدرات والمسالك الملتوية، وأصغي إلى خرير الماء المنسكب منها، كان كل شيء يغني ويرقص من حولي، الطيور والأزهار المتمايلة تغازل النسمات الباردة، وتعانقها في دلال متباين، كانت حقيقة الخضرة أصدق من حقيقة النفس الملهمة، الطبيعة تناجي الروح الحالمة، وتستهزئ من الحقيقة نفسها، الحقيقة المخبأة في غرور النفس وجبروتها .

كنت منفردة في غرامي وتأملي في هذا الكون البديع، وعشقي لهذا السحر الرباني المبهر الذي يثير الدهشة والاعجاب، وفي صراع بين الحلم والحقيقة، وجدت نفسي أركن إلى الوحدة، التي ألزمتني الصمت والتأمل، وألبستني رداء من الحزن والكآبة، وأمطرت العين دمعاً على الذي فارقها، حتى أشفقت منها على نفسي، وفي ردّة فعل قوّية،

12

كان صوتها الضمير والإيمان، امتلكتني السكينة والطمأنينة، وأنا أقف مشدوهة أمام تدفق المياه تدفقاً صاخباً من الشّلاّلات العالية، وعصافير تحط وتطير مزهوة، تحوم فوقها، تزقزق وكأنها تنشد لحناً يتمازج مع صخب مياه الشلاّل الثائرة، وازدان جمال المكان بأزهار النّرجس، وهي تتلألأ تحت ضوء الشمس، فتنسّمت بطيب رائحته التي تعبق المكان، وتلفني نسمات باردة من حين لآخر، تزيل عني الهمّ، وكل ما يؤرّقني، ويكدر حالي.

وما فتئت أحلم، حتى سمعت صوتاً يناديني من بعيد، يقترب ويقترب، كان شبحا وسط الحقول الزاهية، وباقترابه أسرت في زنزانة القلب بدقاته المتسارعة، فضعفت أمام شوق أشتهيه، وسمعت كلماته الوديعة تبحث عني في خلوتي، وكانت حقيقة أخرى للحقيقة التي أرفضها بداخلي ؟!

لقد كانت الأشياء أمامي، غامضة، وانتابني الكثير من التردّد في محاولة فك طلاسمها أنذاك...

كان ثمّة رجل في حياتي و رحل، وجه طفل يعبث بخصلات شعري الطويل، يرسمني لوحة من تقاسيم وجهه الباسم، وروحا لريشته التي يزين بها لوحاته الفنية، يمزجني بألوان ناره المتقدة بالحياة، وينتزع مني الحزن برقة ضحكاته، وابتسامته التي تجعلني أهيم في فضاء الذاكرة

13

المشحونة بالسعادة، لم أحسب أن لحظات السعادة مرهونة بالزمن، وأن ضحكاتي سيوقفها القدر لأجل غير مسمى .

لقد كانت الظروف المعيشية ضدي في كل شيء، وكانت قناعة الذين يكبرونني أكبر من قناعتي للحقيقة.

الحقيقة التي كنت أبحث عنها في ضيق الغرفة، وفي ثمن الأخطاء التي ندفعها لمجرد لا شيء .

ورغم ذلك، كنت راضية باللاشيء، المهم أن لا يغتالني ذاك اللاشيء، والذي، فيما بعد، أصبح له شكل ولون ورمز؟

كنت أحاول ألاّ أستسلم لأحزاني التي كبلتني في ذاكرة الماضي التي تذكرني بها طفولة كانت محصورة بين الثانوية، والقرية، وبين الشوارع الطويلة للمدينة، بين الحافلات والركض وراءها للحاق بها، مساء كل يوم خميس .

في أول النهار، كان الجوّ جميلا، أحسست بدفء الغرفة الضيقة، بأشعة شمس الصباح وهي تشعرني بالدفء، وشعرت أن كل شيء في الفضاء يرقص ويغني، وشيء من الحبّ يسكن تلك الروابي والمروج الخضراء التي جمعتني به، كنت أسعد بلقائي مع رياض فيها، تغمرني فرحة اللقاء به، واحتضنها بلهفة في رؤيته كل مساء.

obeikandi.com

14

كان كل شيء ممكناً، لأن الأرضية كانت مهيّأة وهشّة في مجتمع تضاربت فيه الأراء، وتصارعت فيه الأفكار، وكان لابد من التحوّل على حساب قيم ورثناها، وأخرى دخيلة، وأخرى فتحنا لها الأبواب، دون أن ندرك فظاعة جرمنا، وما يمكن أن يحمله الطوفان معه، حينما تشتّد وطأة الريح ويهيج البحر، فإنه لا يبقى أمامه ما يمكن أن نشدّ ونتمسك به في زحمة هيجانه، وذاك ما وقع بالفعل، التحوّل، والتحوّل كان ولا بد منه، وفي نفس الوقت يؤلمنا أحيانا، وأحياناً أخرى يسعدنا، فكانت نقطة التحوّل تغييراً في السلوك والأفكار، والقيم، وقد تنتهي إلى حرب ذات ودقين، أو يقظة الضمير، لكن بعد فوات الأوان !

كان رياض يتأملني كثيراً، ويصمت كثيراً، وأحيانا كثيرة يبدو قلقاً، وقد شعرت أنه يعيش اضطراباً نفسياً رهيباً يحاول أن يخفيه عني، وسواس قهري يعاني منه، أفكار ودوافع جعلت منه إنسانا آخرا، يسلك سلوكاً معيناً، وكأنه مجبر عليه، ويدافع عن أفكار وصور فرضت عليه، وكأن شيطاناً ما وسوس إليه، وإن علّقت على أمره أو ما يتحجج به، يرفض الفكرة بشدّة ويدافع بحدّة، فما يكون بوسعي إلاّ أن ألطف الجوّ بابتسامة أو نكتة، وأحيانا أخرى يحتدم النقاش بيننا ويشتد غضبه، وقد عهدته متسامحا وحنونا، فيحز في نفسي أنّ ما

15

تحدثت به لا جدوى منه، وننصرف دون أن يقبلني على جبيبني، وأحيانـــا دون وداع!!

اعترتني قشعريرة باردة، وحمى أرعشت جسدي النحيف، شعرت بتحوّله المفاجئ، وقد أربكه قولي، حينما صارحته بذلك قائلة:

ـ يحدث تحوّل كبير في حياتك؟

قد يشكّل نقطة نجاح أو نقطة فشل، أو تعضّ بنان النّدم في نهاية الأمر؟

لزم الصمت مدّة من الزّمن، ولم يتفوه بكلمة واحدة، وأردفت قائلة:

ـ "الصمت يورث الحكمة، والكلام يورث الندامة"[3]؟

أدرك قولي جيدًا، فردّ بارتباك مرّة، وبثبات مرّة أخرى، قائلا:

ـ التحوّل عامل مهم في حياة الأفراد والمجتمعات، ويقتضي منا تغييرا محسوسا في أمور كثيرة.

قلت له :

---

[3] مثل أجنبيّ.

opeikandi.com

16

ـ منـا؟ من تقصـد؟

هـزّ رأسـه غير مجيب!!

توسمت في الشخص خيـرًا، لكن بداخلي انقباض وخوف مريـع، ونفسي تردّد:

ـ لقد تحوّل مجرى النّهر إلى مصبٍّ آخـر، وأنّ رياض قد حدث معه تحوّل كبير وخطير في حياته، فكرًا، وهيئة، وكأنني بالرّجل لا أعرفه، ويبدو أنه أصيب بغسل في الدماغ أو محـو في الذاكـرة، وتجنبت النّظر إليه.

لم يعدّ رياض مواظباً على عمله في المدرسة، وأصبحت الفجوة تكـبر بيننا يوماً بعد يوم، كنت كلما أسأل عنه أحد تلاميذه في القسم، يجيبني وهو يهزّ رأسه:

ـ الأستاذ لم يأت بالأمس واليوم!

الأيام السوداء مازالت تبعث على الرُّعب والوجل، ولم تمـرّ سوى لحظّات وأنا أخرج من المدرسة، حتى لمحته ينزل من سيارة بيضاء رفقة ثلاثـة رجال غرباء، بعباءات بيضاء وسراويل قصيرة، ولثاني مرّة تستولي عليّ الدهشة، وبحسرة يعتريها السّأم والذعر في آن واحد، فقدت فيها السيطرة على حركاتي وأردت مناداته، لكن الكلمات ابتلعتها في جوفي، وانصرفت إلى بيتي في العمارة المطلّة على البحر، وأنا

مشغولة البال وحائرة، ومستفهمة، ومنزعجة، وقلقة، وساوس رهيبة اجتاحتني فجأة، ومع ذلك كنت أتحاشى إيقاظها بداخلي كلّما همّمت بالسؤال عن كل ما يصدر منه.

تسكنني الريبة من هؤلاء الثلاثة الذين كانوا برفقته، عدّت أدراجي دون أن أكلمه، أو يراني، مستسلمة لظنوني، وشكوكي في تحوّله المفاجئ، وتلاشت أحلامي وآمالي معه، ومع ذلك لم أشأ أن تسبق ظنوني أحلامي، فكنت المرأة الحليمة المتسامحة، والعاقلة، والصابرة على تحوّله المفاجئ نحوي، ولم أحاول أن أصدق ما تجول به خواطر النفس الأمارة بالسُّوء، من أنّ أحلامي معه ذهبت أدراج الرّياح، وخاب أملي فيه.

كان كل شيء من حولي يثير الدهشة، وينذر بقدوم أيام عصيبة، كنت دائما أجده عنده، وكلما يلمحني، ينصرف مطأطأ الرأس، دون أن ينبس بكلمة واحدة أو يردّ السلام، وكانت الدهشة مستمرة في جنونها بداخلي، تأكلني، تنهش دواخلي، تشتعل وتشتعل، لكني لم أزد من اشتعالها ولو لوقت قصير، حتى لا أزيد الطّين بلّة.

إنني مازلت أذكر ذلك جيداً، كان في يوم بارد وممطر، غسلت شتائيته كل المدينة العتيقة، وعن طيب خاطر وجدت نفسي عنده، أمام بيته واقفة، أنتظر خروجه، لأنني أعرف

مواعيده المنتظمة، فتح الرّجل الغريب الباب مطأطأ الرأس كعادته، وقف برهة يؤكد له على أمر ما، لمّا لمحنى رياض واقفة، أشار له إشارة مبهمة، التفت الرّجل الغريب نحوي بعيون كحيلة، ثم هرول في مشيته، وترك الباب خلفه مفتوحا دون أن يكمل كلامه، وعلامات القلق قد ارتسمت على محيّاه، وكأنه يريد قول شيء ما، أو كأنني أحسست ذلك من شدّة مخاوفي، بادرت قائلة:

ـ من يكون؟

لم يجب .

أغلق الباب خلفه، وذهبنا معا باتجاه المدرسة، ونحن في الطريق أعدّت السؤال بطريقة أخرى، لكنه لم يجب، وظلّ طوال الطريق صامتاً، تحججت بأمور كثيرة، وأنا أقول له:

ـ متى سنتزوج؟

لا أعرف..

ـ كيف قلت ذلك!

تلعثم في الكلام، ولما وصلنا إلى المدرسة، بادرت بسؤاله مرّة أخرى، وهو يجلس على الكرسي في الساحة، أسرعت وجلست إلى جانبه، نهض بسرعة البرق، وكأنه

19

يخشى اقترابي منه، حينها فهمت إجابة سؤالي دون أن يتفوه بكلمة!

أخذت على خاطري وانصرفت، وبقي هو مكانه.

كانت الدردشة معه مملّة، لأنه كان شارد الفكر وصامتاً، لكن كنت أحس أن السبب الوحيد في ابتعاده عني، يعود إلى ذلك الرّجل الغريب الذي كان ينسحب في صمت كلما يراني!!

كنت في قمّة سخطي، وغضبي، واندهاشي، وبقيت برهة على تلك الحالة، ثم خرجت من المدرسة دون أن أسأل عنه أو أنتظره كعادتي، لم أحدد وجهتي، كانت تتجاذبني الأفكار السيئة، حتى وجدت نفسي أمام البريد المركزي في انتظار صديقتي مليكة، لأفشي لها بمكنوناتي، وما أعانيه مع رياض.

مليكة التي لم تتوان لحظة في البحث عن القضايا التي تثير الجدل، وتثير بها أعصابي، وتساؤلاتي، واستغرابي من تفكيرها ومخططاتها التي تسعى بها إلى التغيير.

كانت مليكة دائما ثائرة على الأوضاع من حولها، وتنتقد منهجية التفكير الواحد في التسيير، وأحادية الرؤية الضيقة للمجتمع وللمؤسسات...

20

كانت مليكة لا تجيد الاهتمام بأنوثتها كامرأة عصرها، فانصب كل اهتمامها على ما يمكن تحقيقه من تعليمات وقوانين جديدة تطمح إلى وضعها كفكر تربوي بحكم مهنتها..

بعد غيبة طويلة وعدم اللقاء بها، تفاجأت مليكة برؤيتي في البداية، ومع ذلك لم تسأل عن سرّ غيابي.

كان الوقت متأخرا، لكنها أصرت على شرب فنجان القهوة معها كعادتي، وهي من ستدفع الثمن تقول مازحة، وفي نفس الوقت كانت أسئلتها كثيرة، لم تترك لي الوقت لأجيب عنها، كانت تتكلم وهي متوترة، فقد كان بائنا في حركاتها، كانت هي الأخرى مضطربة، ومع ذلك لم أستفسر عن اضطرابها، كانت تقول لي كلاما غير واضح، مرّة عنه، ومرّة أخرى عن أمور تتعلق بها أو بمحيطها:

ـ لماذا يفعل ذلك؟

واسترسلت في الكلام دون أن تتوقف...

كنت أحذرك من الهدوء الذي يسبق العاصفة، هناك أذكياء لكنهم أغبياء، وهو واحد من هؤلاء، وهناك ذكاء فيه لؤم، وقد يكون صاحبك منه، وهناك من هـو سجين في برجه العاجي ومنعزل عن الناس؟ هنا قلت لها:

ـ هذا هو رياض، من قبل كان من هؤلاء!!

ابتسمت، وهي تقول:

ـ أخشى أن يكون مثل صاحبه في نهاية الأمر؟

كانت المرأة تبدو حكيمة في رؤاها، لم أعتد منها ذلك، كان في كلامها شيء لافت وقوّي حرك مشاعر القلق أكثر بداخلي، لكنها بادرت بكلمة جميلة، وكأنها انتبهت لتوتري، أو تعاطفت معي قائلة:

ـ في الحقيقة يا هند أنت تحبينه بقوّة، وبالتالي خوفك عليه، أمر طبيعي.

أومأت لها برأسي كطفلة صغيرة اعترت وجهها حمرة الخجل، وكأنني أختفي وراء كلامها، وأعدّدت نفسي لسماع الأمر الأسوأ الذي سيحدث قريبا.

لم أستطع أن أتمالك نفسي، وقد أصبح وجهي محمرا أكثر فأكثر من شدّة انفعالي، وقلت لها:

ـ سأتركك اللّحظة فأعصابي مرهقة، وجسمي متعب، أريد أن أذهب إلى البيت للنوم.

ردّت مليكة، وهي تضع نظارتها السوداء قائلة:

ـ حسناً، يبدو أنها ستمطر..

قلت لها:

ـ ولم النظارات السوداء؟

قالت بابتسامة باهتة:

ـ توخي الحذر، يا عزيزتي، سأكون مسرورة جداً برؤيتك مرّة ثانية يا هند، قالت مليكة وهي تربت على كتفي.

التزمت الصمت لبرهة، وأنا أكتم نوبة من الضحك الهستيري، ثم افترقنا على موعد لاحق في انتظار انقشاع غيوم ذلك اليوم البارد.

لم تخلع السماء عنها ثوب الغيوم الدكناء، ونشرت ظلاما يبعث على الانزواء، والاسترخاء، وفي نفس الوقت على الكآبة.

لما وصلت إلى البيت، كنت في قمّة انهياري، وقفت أمام النافذة أرقب المّارة في الشوارع، وهم يبتاعون حوائجهم في قلق واضح، وأنا شاردة التفكير أنظر إلى السماء تارة، وتارة إلى أولئك الناس وهم في حركة متسارعة، وبوجوه خائفة، تلتفت ناحية اليمين وناحية اليسار، وفي حالة ترقب وقلق مما يأتي به الصباح من جديد، ثم أغلقت النافذة واستلقيت على السرير.

23

كنت أردّد باستغـراب قول مليكة، ثم انتابني خبث ماكر ناحية صاحب رياض، في هيئة وملامح وجهه:

ـ من يكون ذاك الرّجل الغريب؟

ـ لكنهم كانوا ثلاثة؟

كان وحده الرّجل الغريب يرعبني وجوده، وشبحه يترك ريـاض في دوامة من الأفكار الغريبة مثله.

لقد تغيّر رياض، لم يعد ذاك الوجه الضاحك والبشوش والمبتسم، لم يعد الرّجـل الذي عرفت وأحببت، أخشى من تحوّله الذي يقلقني، ويكـبر القلق باستمرار بداخلي، ينبئ بانقطاعه عن العالم، فلقد كاد الجنون يصيبه بهوس التغييـر، وما يجري في الآونة الأخيرة.

تنهّدت تنهيدة ملؤها الألـم و الحسـرة، مشحونـة بالتأوه والأسف، واستنشقت بعمق هواء الغرفة الرطب، ومع كل استدارة في الفراش تكويني نار الحبّ ، وبقيت هكذا، بين نارين، نار اللهفة، ونار القلق والدهشة، فيدفعني حبّه نحو الحياة بقوّة، وأتجرع من كأسها قطرات الهوى الذي سار نحو النجم الساطع في السماء، يضيء السدفة الحالكة أمامي، ويثقلني بوحشة الدرب الطويل الذي سأسلكه وحدي لا محالة.

24

مرّت أيام وأيام، لم يطرأ خلالها أي جديد، نلتقي، نتكلّم قليلا، ثم يلفنا الصمت لساعات، ونفترق على تشنجات الألم، وأشعر حينها بالماضي ينسحب مني.

توقعت قدومه مرّات عدّة، كما كان يفعل من قبل، وإن قلقت تنطق شفتاه:

ـ لا داعي للقلق أو الضجر، ويعضّ عليهما بنظرة تملؤني روحا جديدة ويوما متجددا....

هكذا كان الحال إلى وقت قريب.....

obeikandl.com

– 2 –

اليوم، كان الجو معتدلا، والسّماء صافية، والهواء عليل، وهند ترتشف قهوتها ببطء، تتأمل المكان من حولها، ثم تتمدد على السرير، وعيناها تلاحقان الأفق المتجهم منذ أسابيع خلت، تستدير على جنبها الأيمن، فتقع عيناها على كومة من المجلات القديمة فوق الطاولة، تستوقفها عناوين مختلفة، ويسترعي انتباهها كلمة المعلم، تردّد في قرارة نفسها مجلة المعلم، آه معلم التربية والأجيال؟

ـ إيه.. لقد قالت صديقتي الدكتورة نوال يوما:

ـ أنظمة التعليم هزيلة وقائمة على الطاعة، وليس الابتكار، ولا النقد، ولا حتى الإبداع، إنها قائمة على الخضوع؟!

وتساءلت كثيراً عن معنى الخضوع؟ فلقد ولَّدت الحياة فينا الخضوع في كل شيء، وأجبرتنا السياسة على الصمت كما الحياة على الخضوع!!

كان الخضوع يعني لي التمرد على قوانين تحدّ من حرّيتي في الاختيار، وتجبرني على أن ألتزم بحدود الحرّية التي يفرضها المجتمع الذي نعيش فيه تحت تأثير المباح وغير المباح، لا الخضوع لمجرد أننا نريد تغيير الذهنية التي تكبلنا، ونفرض أخلاقاً رفضها المجتمع، أو بالأحرى (كل واحد حر في أخلاقه).

وقد نحاول تخطي الفعل المراد القيام به، لاعتبارات أخلاقية، وقد ننزلق في هذا الفعل لإحباط تغلغل فينا.

كانت فكرة الفعل المجاني، والوعي، والحرّية، والأخلاق، والتمرّد، هي المسافة الفاصلة بيننا، تزيد من همومي وتذمري، وقد أفقت على حقيقة أن ما أراه في الشارع شيء، وما درَّسته لي التعاليم شيء آخر؟

كان التناقض يبيح المحظورات، وكان الصدام مع الزميلات يجلب لي الخصام والتخلف والرجعية!!

كنت أتساءل عن تلك الحياة التي يروننني غائبة عنها بلباسي، بشعري، وحتى بمساحيق التجميل، كنت أمقت

المساحيق التي تختفي وراءها ملامح الأنوثة التي تسكنني كامرأة، وتبهر عيون الرّجل الذي يريدني بقناع يخفي تقاسيم وجهي.

اكتشفت تلك الخدعة الجميلة في أحمر الشفاه والأخضر والأزرق، وكل ألوان الطيف التي تصفعني بها المرآة، كلّما لمحت فيها وجهي، فكانت تتعبني محاولة تقمص وجه من وجوه إحدى صديقاتي التي تمضي كل وقتها أمام المرآة.

لقد تركتني الحرّية، أو بالأحرى شعارات الحرّية، دائما في حالة صراع مع من هم حولي، وعلمني الخضوع خوف البنات في البلدة، وترك التعليم باسم العادات والتقاليد!

كانت صدمة لي أن يتخلى الأب عن سلطته كأب، ويترك الأمور بيد طفل يوهم نفسه أنه عارف بخبايا المجتمع الآن.

طفل في عمر الشباب، صرعته المراهقة، فكان ما كان، لقد أتعبتني محاولة إعادة الأمور إلى طبيعتها، وأنا في الوقت نفسه ثائرة على الوضع، وخجولة من تمرّدي أحياناً، ورغم ذلك تأبى نفسي الخضوع.

كان في تمرّدي سقوط للأفكار المختلة، وللمنطق الذي اكتشفت أنه كذب، وللإدانة التي كانت تحاصرهم، بأنهم سلبوا حقاً من حقوقي الشخصية، باسم الأخوة والعادات

والتقاليد، والتي ولّدت عنفاً كانت نتائجه تلك الهوة العميقة بين الأخ والأخت، والأب والبنت وآخرها الضياع!!

تلك الحرّية التي يحكمها اللاشعور، وترتبط بالدوافع النفسية التي تخضع الفتاة إلى شهوة الجسد، كانتقام من العادات والتقاليد، أو من سلطة ذكورية متسلّطة، أو انتقاما من نفسها كأنثى، سرقوا أحلامها منها، أو دفنتها بداخلها إلى حين استرجاع حرّيتها، فتضيع، وباسم أحلامها تسقط في الرذيلة، بسبب اللحظة، والشهوة، والخضوع، وبسبب المرآة وأحمر الشفاه و.. و، فكانت أحلام اليقظة محاولة فض الانفعالات الداخلية، أو تخفيفا لوطأة الإحباط على الذّات.

لقد أصبح تحقيق الحلم بعيد المنال، وصعب التحقيق بسهولة، وأضحى هو الحيلة اللاشعورية التي تلجأ إليها الأنثى لإشبّاع الدوافع والرغبات، التي عجزت عن تحقيقها في عالم الواقع ،عن طريق الشرود الذهني أو الوهم.

المجتمع الأبوي لا يسمح للفتاة أن تعبر عن ذاتها، خشية أن يفقد سلطته أو أبوّته، وإن كان لها ذلك فلا بد أن تخضع لمعايير ذكورية متسلطة، وقوانين وأحكام مقولبة، وإن تعدَّتها تصنف كحالة شاذّة يجوز ترويضها بأقصى أنواع التعنيف النفسي والجسدي.

29

كنت قلقة ومتوترة بسبب هذه الأفكار التي حاصرتني، وزاد في اضطرابي رنّين الهاتف الذي أرعبني، كان صوت مليكة الأجش في الهاتف، يثير قلقي أكثر، أحسّست بخوفها من نبرة صوتها الخافت؟ لم أرها منذ شهور خلت، لقد كان الخوف يسكن كل شوارع المدينة العتيقة، ويتخفى في تقاسيم الوجوه العابسة، ويولِد الرعب في النفوس الآمنة.

وقبل أن أواصل مع هواجسي التي كانت تشوش تفكيري، وتزيد من تشنجي، بقيت برهة وأنا أتأمل حال رياض وتغيره المفاجئ، وبالتالي قطعت حبل تفكيري السلبي، ولم أسمح باستمرار تلك التوترات التي كانت فظيعة بداخلي، وكنت أراقب كل شيء يقع عليه بصري من النافذة أحيانا، أو في الشوارع الكبيرة للمدينة العتيقة، وكل ما يلفت انتباهي من حركة أو إشارة تصدر من هذا أو ذاك، وأحيانا أتلقاها باشمئـزاز يُحدث في نفسي التساؤل والتذمـر، وأحياناً أخرى، لم تكن الأشياء بحاجة إلى سؤال لوضوحها، فالشعارات المرفوعة كانت تجزم بتحوّلات كبيرة ستعيشها المدينة العتيقة، واضطرابات، وصدمات ستشهدها في الآونة القادمة، سيكون لها وقع خاص.

لاحت صورة رياض أمامي، ورحت، مرّة ثانية، أفتش في ذاكرتي عن بقايا حب توهج ذات يوم، وانطفأ اليوم، وبقيت

أثاره شروخاً تؤلمني كلّما تذكرتـه، ولكن الحنين لعِب بمشاعري مرّة أخرى، فأعدت صوره أمامي، أفصل مراحل حياتي معه، مرحلة بمرحلة.

أذكر في أول لقاء بيننا، كان قد أهداني كتابا لجبران خليل جبران .. و قال لي بالحرف الواحد :

ـ لك الأجنحة المتكسرة، ولي كل الحبّ !

أدرك عشقك للقراءة وشغفك بها، ولكن ليس كحبّك العميق لي، فلك إحساس وحبّ واغتراب جبران؟ !

أطلقت ابتسامة غنج ودلال، ومسحت بيدي على وجهه، مداعبة إياه بحنو، واقتربت عينـاي من عينيه المشعتين في استحياء يلفني، وأنا أسرق ملامح عمر ذابل أتعبه الانتظار قائلة :

ـ كم أحبّك؟

ولكن هل كان يعلم بالانكسار القادم، أم كانت مجرد مزحة منه آنذاك؟

كانت كل الطرقات والشوارع تعرفني معه، لم أخبئ مشاعري نحوه، وكان الشوق وحده يناديني إليه، كنت

كمراهقة تلعب بأحلامها، أترجاها في قلق أن تكابر قليلا، لكني كنت، حينما أراه، أهرع إليه كصغيرة ترتمي في حضن أمها، يمنحني قلبه بعض الزفير والشهيق لأشعر بالحياة من جديد.

بدّت لي الشمس اليوم، حزينة، كحزني عليه، تنشر ضياءها في خجل، تستحي أن تطبع قبلة على شفاهه اليابسة، تترقب ملامح وجهه الذابل، وتغريني باللقاء به.

كيف ألقاه، وبأي لغة أتحدث إليه، فكل الكلمات غابت عني، دموع الشوق أكفكفها سراً، وكأنني يتيمة في هذا العالم من دونه، وقد جفّ ريق الهوى منه، وبلله بوهم الذكريات.

يا وجعي، كيف أصدقه، اليوم، وكان البارحة كل كذبي يذوب في صدقه، أحببته فاكتويت بحبّه، ومن بحر الأشواق ارتشفت وما ارتويت.

آه منه، ومن جفوته ومن عيون الشامتين، ما أشدّ قسوتها على الذات من وقع سيّاطهم؟ وبدأت التساؤلات تتزاحم...

كيف طاوعته روحه أن يرحل عني مختارا؟ كيف طاوعه قلبه أن يرحل من دوني، و دون أن يلتفت وراءه وينظر إلى عيوني الدامعة؟

obeikandl.com

كيف طاوعه قلبه أن يترك نصفه أو كلّه يسكنه الخراب، ويشيخ في عمر الزهور من دونه.

لم أعدّ أدرك الأمكنة بعده، وقد حسبتها ظلالا يسكنها بعيدا عني، هذه المرّة يسكنني خواء رهيب، تعوي ذاتي مسعورة في ظلام أعماقي السحيقة تفتش عنه.

هل أدرك معنى الخراب الذي لحق بروحي، وقلبي الحزين يغرد في سماء موحشة بعده، ليلي لا همس فيه، غير صوت مهزوم يردّد بداخلي:

- ما أقسى غيابك !

هبّت عليها نسمات باردة أيقظتها من أحلام الغفوة، وبقوّة، تفتح النافذة على مصراعيها لتسكن عابثة، وهي تقلب صفحات المجلة، تداعبها أحياناً وتقلبها أحياناً أخرى، وتطويها في هدوء، كأنها تغازل هند أن تتحداها و تتصفح أوراقها، أن تقرأ عناوينها، أن تسأل، ثم تجيب، ألاّ تغض الطرف عنها، وتشرد في الأفق البعيد؟ !

تحاول أن تكسر جدار الرتابة واللامبالاة عندها، وتطفئ حنينها إلى رياض .

obeikandl.com

33

كان لابد لها أن تجد فكراً آخرا يسكن هذا الفكر، أو يعارضه بالنقد، أو بالحب!! لا بالقتل أو التكفير؟!

هذا الفكر العبثي، المتمرّد عن النّص، والذي قيل عنه أنه مشوش بالحداثة والنموذجية، المرأة المتمردة على القوانين وسلطة الرجل!!.

كان لابد لها أن ترفع الكلفة بينها وبينه، أن تخرجه من قوقعته التي يظّل فيها مختبئاً، لا يدرك ليله من نهاره، إلاّ عندما يرفع الآذان، يقوم آليًا للطَّاعة، ويعود إلى زنزانته المظلمة، لا يسمع له صوت، ولا خشخشة أوراق أو صوت تلفاز، كان فقط صوت المقرئ يرتل آيات من الذكر الحكيم، ثم يصمت هو الآخر في بيت قد تداعت أركانه، ولم يبق منه إلاّ هذه الزنزانة المظلمة، وأشباح الهجر تبعث على اليأس والقنوط والتذمر ...

اقتربت من المنزل، ولمّا دنوت من الغرفة، أحسست ببقايا الحياة تنبعث منها، ولمّا التقت عيوننا، تحركت عواطفي نحوه، وتأثرت لحاله ..

كان اليأس يقتلني وأنا أتذكره، وبنفس الهدوء الذي عهدته به، تركني واختار الطاعة، وقد كنت أرفض هزيمته، وأعي العقوبة، كنت أحاول التعاطف معه قدر المستطاع، كان

التعاطف معه القدرة الوحيدة على الغضب، وكانت ثورة الهستيريا قد بلغت من الجنون أشدّه في حق امتلاك الأرواح وترويضها للطّاعة فقط، والتمرّد على السّوط الذي أخرس الأفواه إلى الأبد...

كانت معالم الحبّ بيننا تتلاشى، شيئا فشيئا، وتلاشت إلى انكسار بداخلي، ثم شاخت في عمر الزهور، وأصبحت نسياً منسيا، وأمراً مكروهاً، وتأملت وجهه الملائكي، فإذا طفولة حائرة تتكلّم من بقايا أحلام ضائعة سكنته، وانزوت في غرفته المظلمة، ثم تصاعدت الزفرات والآهات المؤلمة بيننا، وجفّت الدموع الحارقة، وطوقنا الأسى بكآبة مملّة، والسكينة تملأ المكان، فلا أرى غير الكآبة والحسرة تسكن الغرفة، وسنين عمره شاحبة كأوجه الأموات لحظة الخلود الأبدي، وقد أصبحت الأحلام والآمال التي كانت تغمرنا متجعدة في تضاريس وجهه الذي شاخ في عمر الشباب، ولم يعد رياض هو رياض الذي عرفت !

أغمضت عيني من وقع الصدمة، وأدركت أن الذي أمامي، ليس هو، ودفنت أفكاري وحبّي وأحلامي بلا أمل، وعتاب أكبر من كل أحلامي!

كان كل الذي يعرفه أنه أمام طريق صعب، والاختيار فيه أصعب، ومهمته أن يغير المجتمع من أفكاره الفاسدة إلى

الروح المثاليـة التي تسكنه، أو كما يعتقدها في فكره الذي تغير فجأة.

كان لابد له أن يصمت ويتحرك بخطى ثابتـة، لاعناً كل شيء أمامـه، هكذا رأيته، وكان لابد لي أن أجد منفذاً أبث من خلاله أفكاري ورؤاي في روحه اليائسة، كان لا بد لي أن أسكن قلبه قبل عقله، فاخترت العشق لأتسلّل بأفكاري، وإن اختلفت معـه في الطرح، فقد أتفق معه في الحـبّ ؟!

فكر جديد يثور على الأنظمة التقليدية في الفكر، في الطرح، في الاعتقاد، وحتى في التطرف، ولكن هل يمكن أن يثور على الـذّات؟!

ذات مسـاء، كان وجهها صمتا باردا، شاحبا، يهجو غرفتـها، يرتل أنغاماً ضمـآ، طرزت نحيبها، وهدأت هيجانـها، فتنام حالمة، وترسمه في افتضاح حنانـها الفياض بين أحضانـها، وهو يداعب خصلات شعرها الطويل، هبّت عليها رياح المشرق، ورياح أوروبا، وتصادمت أمامها المعطيات بإفرازاتها وقبولها، وتذكرت قوله في جلسة جمعتهما يوما بالأستاذ عبد النور، وقد كان للحبّ خيوطه الذابلة تلفهم في صمت التغيير والتحوّل الجديد.

ـ إنك تدّعين التحرر بإفساد المرأة ؟ قال رياض.

قلت، وقد أفزعني اتهامه بأنني أفسد المرأة بادعائي التحرر:

ـ المرأة قضية سياسية، اقتصادية وجنسية، العنف الموجه ضد المرأة ليس فقط عنفا جنسيا، وإنما عنف اقتصـادي وسياسي وأخلاقي وديني[4]..

قال الأستاذ عبد النور:

ـ ليس بهـذه الحدّة يكون النقاش يا رياض، والوضع يستدعي منا رؤية تخضع للمنطق، وهي تناقش....

صحيح أن المرأة اليوم أصبحت قضية، وسلعة في الوقت نفسه، ولكن.. كيف ولماذا؟

قلت:

ـ صفقة تجارية مربحة، صورها العارية تملأ الصحف، ومومياء تتلاعب بها الأيادي في بيوت الأزياء، والورقة الرابحة في المعارك الانتخابيـة.

ـ أرفض أن تبقى المرأة سجينة نفسها، وأوهامها القذرة ، وسجينة الآخر لتحقيق مآربه و... و...

[4] نوال السعداوي، مجلة المعلم العدد 2002.08

obeikandi.com

كل الذي يهمني أن تكون المرأة، امرأة تأبى الخضوع، تمقت التمرّد، وإهانة نفسها، امرأة ذات شخصية قوّية، طيبة، عاقلة و مسؤولة و... و ..

لقد أصبح ينظر للمرأة على أنها مجرد جسّد لميزة الجمال، وصفة الإمتاع والتسلية والإيثار، وغيرها من الأمور الفطرية التي وجدت فيها، وهي، من جهة أخرى، التي نزلت بنفسها هذه المنزلة الوضيعة، تعبث بجسدها، وتحط من قدرها فظلّت محل التهم لارتكابها المعاصي.

قاطعتني ميمونة التي كانت تجيد الدعابة، وإنقاذ المواقف الحرجة قائلة:

ـ هذا عنف اقتصادي، وأخلاقي، وجنسي، بطريقة متحضرة.

حدّق رياض عميقا في عيوني، ثم فيهم، الواحدة تلو الأخرى، مجهداً نفسه في التعبير عما يعنيه بقوله، وكأنه يحاول أن يبوح بسرّ يكتمه عنا.

لقد كان ذلك صعباً، وفي أغلب الأحيان كان كلامه غير مفهوم من أحد، لم يكن واضحاً، عمومياته أوحت لنا، وبخاصة أنا، بتحوّله في اتجاه فكر ما، وانطباع يقول لي:

-لا يصح الحبّ بين اثنين، إلاّ إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر يا أنا، ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع- أعنف ما في الخصومة، إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة، وأكبر متخاصمين في عالم النفس: متحابان تباغضا[5]...

- هل يمكن لكل هذا الحبّ الكبير أن يتحوّل، فجأة ، إلى بغضاء تسكننا؟

حينها، غمرني إحساس بالضياع، وارتعشت الأفكار التي سيطرت عليّ طوال شرودي، واستفزازي لها، وأمام ذهولي وارتباكي، كدّت أموت من انقباض في صدري، التاريخ يعود من جديد في ثوب امرأة، ولسان امرأة، وتمرّد امرأة، قيل عنها الشيطان الأبيض[6] !!

لم أبذل جهداً في استعادة توازني، لأن كل الذي أمامي كان فضاء مشحونا بالتناقضات، واصطداما للأفكار، هي الحرب إذن، حرب الأفكار؟!

كنت أعي أن التنازل صعب في حياة مليئة كلها بالتنازلات، فكانت فرصتي الوحيدة أن استمر في تلك

---

[5] مصطفى صادق الرافعي.
[6] نوال السعداوي نفس المصدر السابق.

المهزلة، مهزلة الأفكار، فأحدد الانتماء، وأكتشف خدعتها للذات، وقدرتي على التحدي في كبرياء!!

لم أبح له بحبّي ولم أرتم بين أحضانه، رغم سيطرة فكرة وجودنا معاً في المروج، عندما رأيته للوهلة الأولى، ليقبلني في شكل ثورة ثائرة على الفضيلة والطاعة والأخلاق، والاختلاء عن الأنظار، نسرق الكلمات والنظرات وحتى القبل.

كان يكفيني وقتها أن أقنعه بأفكاري لا غير، كما كانت "إستر بولانسكي" أو"حنا بولمبرج" (اليهودية) تحاول إقناع "ديفد شارل سمحون"، أو"رأفت الهجان" بأفكارها، فقال يومها:

- ((أنا يمكن أكون حبيت حنا.. أنا حبيت أفكارها!!)).

فغلبت الفكرة الانتماء، وحدّدته في إثبات الذات للآخر، وكانت المشاعر وحدها هي التي لا تخضع لفلسفة الحياة، ولا إلى كذب الساسة ومنطقهم ..

وأن لا يكون سلاحي قُبَلا، ونظرات وكلمات وأحلاما، تزينها اللحظة الشاعرية، وإدانة أبدية لا يمكن محوها أو نسيانها !!

أو كرسائل غادة السمان إلى غسان كنفاني، حبّ واغتراب وانكسار وموت وذكرى كالطيف.

كنت أخشى المهمات الصعبة، وفي نفس الوقت أخشى أن تضيع حقوقي، وحتى أكتشف قدرتي على ترويض الأفكار لصالحي، كنت أتساءل عن هموم المرأة المتمرّدة على كل شيء أمامها، وثائرة على الاعتراف بالهزيمة، ورافضة التنازل.

تذكرت قوله عندما خرج من زنزانته، وهو يذكرني بقول الحقيقة والاعتراف بها:

أن نرقى بالمجتمع إلى العدالة، وأن ندحض الفساد، وأن نكسر التبعية، وأن نجسِّد لغة الحوار بيننا و.. و..

وقاطعته قائلة:

ـ لكن ليس بالتعذيب، أو بقتل النفس، أو بتكفير العقل؟

ولأنني كنت أبحث عن فضاء للحرّية، عن فضاء للعقل، ردّ في هدوء بارد:

ـ إذا تطلّب الأمر ذلك !

obeikandi.com

كنت في وضع لا أحسد عليه، بين كفتي الميزان أتأرجح، بين فكرين يرفضان التعذيب، والترهيب، والقتل والتكفير، وكل أساليب القمع النفسية والجسدية، هي معادلة صعبة، وفي فضاء مشحون يرفض المساومة والانصياع والانقياد عن طواعية.

هل كنت أمارس عليه دور الداعية، بأسلوب المفكرة الواعية، الراشدة، الناصحة، أم دور المحبّة الضعيفة؟

كان الموقف أكبر مني، فرحت أذكّر نفسي، وأردّد بداخلي ما قالته لي الداعية زينب الغزالي في رسالتها يوما ما:

" أن تلتزمي أنت أولا بما تعتقدين، ثم تختاري الفرصة المناسبة، وبأفضل أسلوب تطرحين ما تعلمينه من نصح وإرشاد، وأن يرسخ في قلبك أن هذا لوجه الله، فإن استجاب الناس فالحمد لله، وإلا فقد أعذرت إلى الله..."[7]

كنت مشوشة، ومرتبكة، وخائفة من المجهول، انبهرت وكلّي دهشة، فقد كان يتحدث بقلق وحقد، وعظمة تسكنه حدّ التعالي، بل خلت أن هذا الشخص الذي أمامي هو منهم، قد

[7] مقطع من رسالة خاصة بعثتها لي الداعية زينب الغزالي.

يحمل يوما ما سكينا ويغرزه في جسدي، ليقطع حبل أفكاري ويسكتها إلى الأبد، انتقاما مما لحق به؟

هو لا يعرف الحبّ ، لأنه يتقن القدرة على الطاعة، أكثر من الوقوف أمام امرأة للحبّ ، والتوجع والتوسل ولحظات الجنون...

ومن غلبة أمري، رحت أمعن النظر إلى هذا الجسّد المصلوب أمامي، هذا الرّجل الذي أبهرتني قوّته، وعظمته التي استمدها من شيء كان يسكننا، وانتهى..

إيه لقد غرست الرّجل من حيث أردت اقتلاعه؟، هذا ما كان سرّ ي يردّده.

هذا الرّجل الذي اخترقني، فكنت لباسا له حتى نسيت الفرق بيننا كرجل وامرأة، وقلت وأنا أحوم حوله :

"ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرّجل إلاّ بشيء واحـــد، هو صفاتها التي تجعل رجُلَها أعظم منها"[8]

ولأول مرّة، وجدت نفسي أبحث عن قوّة المرأة في الرّجل... لأقول:

---

[8] الرافعي.

ـ هل هو عطرها؟

ـ هل هي أنوثتها التي تغري بها؟

ـ أم هو قلبها الذي تتربع عليه امرأة حنونة يسكن إليها، وعقل أكبر من تمرّدها.

لقد أدرك سرّ دهشتي، واستغرابي، وحومي حوله، فحاول أن يجد مبررا، استدار لكي يبحث عن مخرج، تلعثم وكأنه يحاول أن يسقط من دوافعه تلك النزعات التي تنكر لها، وينكرها في صورة لا شعورية، وهي من الحيل العقلية التي يلجأ إليها رياض لحفظ ما تبقى من الذات، وما يراه من مثالية.

وأردف قائلا:

ـ إن التكفير هو الوسيلة الوحيدة التي نسيطر بها على أفكار المجتمع و...

قاطعته لأثير ثورته وأوجج بروده قائلة:

openkandil.com

ـ السياسة شجعت هذه التيارات الظلامية، وأصبح الابن يقتل أباه...[9]

التفت إليّ، بعدما استدار جانبا، وقد لاحت أمامه المدينة الموعودة محدقا في الأفق بشراسة قائلا:

ـ لا أريد الحديث في السياسة .

واصلت محاصرته و أنا أستفزه بقولي:

"الاستعمار الجديد شجع هذه التيارات الدينية لبعث فتن طائفية في بلادنا"[10].

وقاطعني ليكبح ثورتي قائلا:

ـ ولم لا تقولين الاستعمار الجديد هو الذي وظفكم لخدمة أفكاره، وما توانى لحظة واحدة في مطاردتنا وملاحقتنا وتعذيبنا باسم الدولة، والحفاظ على النظام العام كما يدعي؟

ـ وهل الاستعمار الجديد وضع اسمي في البطاقة الرمادية؟

[9] نوال السعداوي، نفس المصدر السابق.
[10] نوال السعداوي، نفس المصدر السابق.

obeikandl.com

تهجيرنا وتكفيرنا (نوال السعداوي، نصر حامد أبو زيد، حيدر،وغيرهم كثير) وفي السجون، وضعوا اسمي على قوائم الموتى في التسعينات والثمانينات لأنكم ..... ،

ودون أن أكمل، نظرت إليه وأنا أرفع كتبي قائلة:

ـ الزّمن وحـــده كفيل بكشف الحقيقة التي تتوارون خلفها ((قتلوا مفكرين وأدباء، هم يحملون بندقية ونحن نحمل قلما؟، هم يقتلون وأنا الآن أتكلّم، يعني قدمت أرائي وكتبي، فليناقشوني في كتبي، لكن هم لا يناقشون، هم يقتلون مباشرة))[11] .

حملق في وجهي جيدا، وضغط على كومة الكتب التي بجانبه مردداً، وكأنه يحاول أن يستنطق التاريخ أمامي:

ـ أين كنتم حينما زجّ بنا في السجون، تحت سياط التعذيب والإعدام والتشريد، أليس ذلك بسبب أفكارنا، أردنا رفع الذّل والفساد.. و.. و..

هناك حدود وأخلاقيات لا يتعداها العقل مهما كان؟

ردّدت وقد اعتلت وجهي نبرة من الغضب:

---

[11] نفس المصدر السابق.

- وأي منطق هذا، الذي يخضع العقل لتقبل أفكاركم المتطرفة؟

- وهل من الأخـلاق، أن تقتلوا وتكفروا؟

وردّ متعصباً:

- والعكس صحيح ! من أعطاكم الحق في قتلنا وتكفيرنا؟ ! وهل وصل العقاب إلى حد تطوير أساليب للتعذيب ولتمزيق الأجساد وغسل الأدمغة والتصفية الجسدية و..و... وهل الجريمة والعقاب عقدة تسكن الإنسان منذ هابيل وقابيل؟ وهل نسي فرويد في تحليله للشخصية أن يقف عند عقد الإنسان وجرائم هذا العصر..وهل ..وهل ..

لم أتوقف عن طرح الأسئلة التي تلاحقت في ذهني الواحدة تلو الأخرى، التي أتعبتني، كما أتعبني هو بصمته البارد، وبنظراته التي كانت تستفزني، كنت أجادله بحدّة، ولكن في قرارة نفسي كنت أشعر بالضعف، لأن التاريخ الذي استنطقتُه من عينيه أربكني، ومرّ أمامي شريط مؤلم، لماذا أعدموني[12] ، وأيام من حياتي[13] .. و.. و..

---

[12] مؤلف سيد قطب.

[13] مؤلف زينب الغزالي.

إلى أولئك الذين كانوا يعذبون من أجل أفكارهم ونعتوا بما هو أشدّ وأعظم، فعقد لساني، وشلّ تفكيري، وسقطت في متاهة التفكير والتحليل والحسرة .

كنت أود العثور على شيء يسقط التهم، أو يلغي حالة التفكير والاستنفار التي أصابتني، ويزيح عني حكم الحاكم والجلاّد.

حاولت التخلص من صورة الحاجة زينب الغزالي، لكنها بقيت تحوم حولي، كأنها تدينني، وتطلب مني أن أقول الحقيقة، كنت مرغمة، ولكن لست التاريخ، التاريخ وحده يدين ولا يسامح؟.

ورحت أسأل عن تلك المعادلة التي تقول:

ـ لكل فعل رد فعل، وهل يمكن أن تدان العقول بهذه الطريقة؟.

وللأسف سقطت في بيئتين متشابهتين، فعجزت عن التفكير والتحليل والإدانة، وقلت:

ـ هل الحياة تستحق منا كل هذه القسوة والجبروت؟ كل هذا من أجل ماذا؟

نظر إليّ وكله سخرية، وتحوّل المفهوم عنده إلى صدام، وغاب الحوار المتكافئ، وفي نفس الوقت كان يغيظني صمته، ويقتلني ببروده.

صمتّ قليلا، بينما كنت أحاول التخلص من ذاكرة مشلولة، وقد كنت في قمة انهياري، وقوّة طرحي، ومع ذلك لم أترك له فرصة إدانتي، فالإدانة تعني النهاية لي ولطموحي، واتجهت بخطى مثقلة بالتعب نحو النافذة، وانتابني احساس بالجزع وعدم الأمان معه، وفي نفس الوقت أربكتني لحيته الكثيفة التي يشدّها بقوّة كلما تعصب، حتى خيّل إلي أنه يشدّ على عنقي، ويخنقني باستفزازي له، ومن جهة أخرى كانت تبعث في ذاتي الكبرياء والشموخ بأسلافنا الذين لا يشبههم، فتقف أمامي الذاكرة والعظمة مرآة لحاضري. ! !

كانت نسمات الهواء البارد تلفني بحنان، وتبرد هيجان الدم الفائر في أوصالي، وقد ابتلعت ريقي، وتنفست الصعداء حدّ العياء والاسترخاء.

التفت إليه، فدهشني سكونه وجلده وجَلَدي بسياط الخوف منه، وصمته الرهيب، وعيونه المزينة بالكحل، ولحيته الملونة بالحناء، والتي يبدأ في تمشيطها كلما اشتد الحوار بيننا، وكأنه يعيد بها توازنه من جديد. !

تساءلت بمرارة شديدة:

ـ أتراني معه في معركة متعادلة؟ أم أن الفكرة نشأت من الفراغ، وملأت المكان، وسيطرت على العقل، واحتويتها لشعوري بالخجل من هذه الجلسة العقيمة، وكيف سمحت لنفسي أن أنزل بفكري إلى فكر السّفاحين، كل على طريقته؟

وكيف يعقل أن أكون أنا قد أحببته؟ !

كانت تفاصيل الخطة التي رسمتها في مخيلتي هي فرصتي لأنتصر عليه، ولا أعترف له بالهزيمة، فلقد علمتني أمي، حينما كنت صغيرة، والآن كبرت، وكبرت معي الأفكار، وصرت أروضها لصالحي، ألاّ أتنازل حتى وإن بكيت، فقد يكون في بكائي انتصار لذاتي ؟ ! هكذا كانت حيل الأطفال؟

ـ أتريد أن أعترف لك بسرّ لم أبح به منذ ثلاثين عاما؟

التفت إليّ مندهشا، يستنطقني بنظراته في الوقت نفسه كي أتكلّم.

لقد طاردتني الأفكار، وحطمتني، واختُزلت حياتي في أفكار، لعنتها لمجرد تبلورها، كانت مشكلتي الوحيدة هي الأفكار، وسياسة الأفكار التي تبنى عليها المجتمعات والبحث عن فضاء للعقل.

لم أجد ردا مقنعا منه، لم يصدر عني أي تعليق حتى تذكرت أنه كان ضدي في كل شيء، وكل ما طرحته عليه من صور بدّت أمامه مجرد واجهة لفكـــر ينبذه فكرا وروحا.

قال:

ـ كان لابد علينا أن نجد فكرا يتنافى مع الفكر اليوناني لاختلاف الحضارتين، وبما أن هناك عوامل نفسية وبيئية وتاريخية مشتركة تجمعنا، فلابد أن نعيش وفق قناعتنا وتصوراتنا نحن...

استصغرته وقلت له:

ـ إذن لا معنى لفكرنا إذا كان معزولا عن العالم الخارجي، غير متفتح على الثقافات الأخرى بعيدا عن التحيز للغة أي بلد؟

وحدها الثقافة والتراث تجمعنا في الفكر والتبادل، وهذا هو الذي ترفضه أو بالأحرى ترفضونه؟

صمت وهو يهزّ رأسه باستهزاء، ويمشط لحيته بكبرياء دون أن يعيرني أدنى اهتمام منه.

وأردفت متذمرة منه ومستفزة:

obeikandl.com

ـ أنتم وكأنكم لا تحسون، ومن فقد الاحساس فقد القدرة على التعلم.

"إن الفكر لا يعرف الاستقرار، وهو في حركة دائمة، والأفكار والتصورات هي التي تقودنا دوما إلى الأفضل"[14]

خرجت من عنده مرتبكة، وتركته قابعا في قوقعته المظلمة، وأنا أحاول أن ألملم هذا الشرخ الذي يسكنني، وأتمتم كمن أصيب بالهذيان:

ـ "ويح هذا الجاهل بأمور العقل، الجاحد للفضل، لم يكن فضلي عليه مالا أو جاها، بل روحا ترفرف عليه وتحرسه من هلاك نفسه.."

لقد كنت أتصور أنني سأهزمه بالحبّ، ولكن سيطرة الفكرة والطاعة عنده تركاني أنسحب بمرارة ، وأنا أردّد في نفسي :

ـ إن الحبّ لا يعرف طريقا إلى قلوبهم.؟

وقد شاء الحبّ أن أكون أسيرة الفكرة.

آه ما أعظم الحبّ وما أصغرني[15] !

---

[14] هيغل

– 3 –

حينها ابتلعَ رياض ريقه بابتسامةٍ باهتة وفي نفس الوقت ماكرة، هذا ما شعرت به وقتها، وراح الجميع يحملق فيه، في قرارة نفسي سخرت من أنني أحببت هذا الرّجل الذي يزيد أكثر فأكثر من عقدي التي أخفيها بداخلي، وأتصارع معها كل ليلة في أحلامي، هل كنت بحاجة إلى عقده اليوم لأشرّحها أمامي، وأضيفها إلى عقدي القديمة التي حاولت إخفاءها أو بالأحرى تجاوزها.

وحده اليوم يعلمني كيف يمكنني التخلص من كل عقد الإنسان، وأنا أنظر إليه من نافذة أحلامي التي شرعتها نحوه، كي يحضنني كعاشقة ترتمي في حضن الحبّ .

ردود فعـل كانت تصادفني من فرط سعادتي به، وعلى مدى شهور طويلة قد مضت، لا أدرك الوقت الممتع الذي قضيته معه، ولا تلك المشاكسات الحميمية برفقته، حينما كنت ألمح عشاقا على مقاعد الحديقة يوشوشان في هدوء أو يمسكان بأيدي بعضهما البعض، تخيّلت نفسي مثلهم أو أكثر، ولكن هيهات، كانت مجرد أحلام.

---

[15] جبران خليل جبران

حاولت أن أصف له مشاعري، وأعبِّر له عن ذلك بتلقائية كما تعوّد مني، لكنه كان حاضرا بجسده، وغائبا بفكره مع الجماعة.

لم أعدّ أذكر تفاصيل ما حدث بعد تلك الليلة التي تركني فيها، وغادرت المكان دون رجعة.

كان هناك ما يميّزنا، كنا وحدنا ولا أحد حولنا، كنت طيبة وساذجة، حينما صدقت كل كلامه وأنا أعبر ردهات الحيّ العتيق، وأعيد ترديد كلماته في سرّي وعلانيتي، حتى ظن من مرّ بجانبي أنني مجنونة، وهو يتلطف ويتعوذ من مس الشيطان قائلا:

ـ شفاك الله، مسكينة، جميلة، ..... ولكنها مجنونة؟

أنظر إليه وأنا أبتسم، ويتحسب لذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة، ويبتعد عن طريقي خوفا من جنوني الذي قد ينتفض في وجهه.

وقتها تركت رياض وقد قطعت حبل أفكاري نظرة ازدراء، وسخرية أقدار حوّلت حياتنا البسيطة إلى كومة من عقد تسكننا، حاولت أن أسكِّن هيجاني، ورحلتُ، وعيناي معصوبتان عن الحقيقة التي لا أريد تصديقها، أو حتى مجرد التفكير فيها بيني وبين عقلي، وتعوّدت الشك حتى في الحقيقة نفسها.

ركبت سيّارتي في محاولة للهروب منه، ومن واقعي المؤلم معه، تذكرت ألاّ خيار للقلب حينما يكون العقل مسيطرا، وأدركت أنه لا حيلة لقلب يلهث وراء سراب.

وفي زحمة شرودي ويأسي، فوجئت وأنا في الشارع الرئيس القريب من البريد المركزي للعاصمة بيد امرأة تلوح لي بالتوقف.

كانت ملفوفة في جلباب أسود، دهشت، وما كان من دهشتي إلاّ أن ضغطت على فرامل سيارتي في ردّة فعل غير محسوبة، فتوقفت عند قدميها.

ركبت، وكانت في حالة ذعر.

قلت:

ـ من أنتِ؟

قالت:

ـ بسرعة، بسرعة، غيِّري اتجاه الشارع، وبحركة لا إرادية نفذت ما أرادت، ولأول مرّة أفتاد بفكرة، مع أني كنت أحاول أن أقود بأفكاري؟ ويا له من تناقض عقد لساني عن النطق. من تكون هذه المرأة؟

دخلت النفق الأرضي وفي محاولة مني أن أعيد عليها السؤال من تكون، رفعت النقاب عن وجهها قائلة:

ـ أنا مليكة، ألم تعرفينني؟

obeikandl.com

كانت دهشتي كبيرة، وأكبر من شكوكي واحتمالاتي، أيعقل أن تكوني أنتِ، ومتخفية في جلباب !

ردّت وهي شاحبة الوجه معظمة الخدين:

ـ الموت هو الذي يدفعنا لإنقاذ أنفسنا ولو بالتستر بجلباب؟

ذهلت من ارتدائها الجلباب، في حين اعتبر ظاهرة من مظاهر اضطهاد المرأة، الكثير من النساء صرن يلتزمن به كنوع من التعبير عن انتماء ما، عجبت لتلك الأصوات التي تندد برفع الغبن، وبسن قوانين تمنع ذلك، وبالتوصيات التي مازالت تلاحق المرأة في قناعاتها واختياراتها .

آه من كل هذا ومن سخرية الأقدار، واستدركت حواري مع مليكة فقلت:

ـ ولكن لماذا؟

ردّت النقاب على وجهها ثم قالت:

ـ إنها قصة طويلة، هم يهددونني بالموت؟

من هم؟

obeikandl.com

- سيقتلونني..

- ولكن من هم ؟ !

- أنتِ لا شك تعرفينهم !

- آه .. ولكن أي التيارين، فحسبي أن كليهما يريدك قتيلة؟

فالأول يرفض أفكارك، والثاني يرفض تطبيق أفكارك؟

أعادت نزع النقاب عن وجهها، وهي تحدّق في بغرابة، كأنها تراني لأول مرّة، وبأفكار جديدة، قائلة بعصبية غير معهودة:

- الأول إن صحّ القول رفض أفكاري ولم يقتلني، بل تركني أعمل في صمت، أما الثاني أراد قتلي لتطبيقي كما يظن أفكار الأول، وأراد قتلي علنية وشتان بين الأمرين؟ !

لقد قلت لك ألف مرّة يا صديقتي إن ملف التربية خطير، وثوابت الأمة لا نقاش فيها، وأنت ترغبين في تحويل المجتمع بأفكار يرفضها، لأنها جاءت من وراء البحر، وتخدم سياسة استعمارية جديدة، وهو مازال يحفر في ذاكرته مليون ونصف المليون شهيد، أيعقل التحوّل من النقيض إلى النقيض في رأيك؟

على كل حال، لا أستغرب شيئا في زمن أصبح فيه الموت هو السيد، والجاهل بأمور الدين والدنيا هو من يحاول السيطرة على المجتمع ،ولو بالقتل والتكفير، والآخر بإفساد المجتمع وإغراقه في اللهو، وقد يرهن كل المستقبل من أجل بعض الحاضر؟ !

ـ اسمعي، لقد أصبحت أخاف من كل العيون التي تنظر إليّ، وأخشى أن يعرفني المارّة من حولي، فيخلعون هذا الجلباب المزيف الذي أرتديه.

ردَّدت عليها متهكمة:

ـ اعتقدت أنك تحجبت عن قناعة؟

ـ قلت لكِ إنني تخفيت به، خوفا من عيونهم التي تطاردني في كل مكان، وبهذا أمنع عن نفسي ملاحقتهم لي.

ـ لا عليك، فقط أين أوصلك ..

ـ توقفي هنا، وقبل أن تغادر قالت لي:

ـ لقد غيّرت المسكن ورقم الهاتف؟

وكيف أتصل بك إذن؟

obeikandl.com

ـ لا ..لا.. لن أعطيك رقم الهاتف، أو عنوان المسكن، حينما أحتاج إليك أعرف كيف أجدك .

كما تشائين.

ـ الوداع....

ـ قولي إلى اللقاء.

رحلت، قطعت الطريق، تلتفت وراءها كهاربة، تتفرس الوجوه خلفها، ثم راحت تسرع الخطى حتى اختفت عن ناظري.

لم أكن أعرف أن أدمغتهم تتلقى أصواتاً وأشباحاً وهم آلة للتنفيذ، بل الأمر أكبر من ذلك أو فوق ذلك... !

شعرت أنها ولأول مرّة لم تفهم اعترافي، وأن الأمر أسوأ مما كانت تتوقع، وبقيت مكاني مشدوهة.

البارحة، كان الرّجل الذي عرفت يهرب مني، واليوم نفس المرأة الأقرب إلى نفسي تختفي وتهرب مني..

آه مـا أشبه البارحة باليوم، وهل يتوقف الموت عن مطاردتها حتى أراها مرّة ثانية؟

obeikandl.com

وهل يعود الزمن إلى الوراء فيحضنني دون أن تقف الأفكار حاجزا بيننـا؟ !

obeikandl.com

– 4 –

مازلت أتذكر جيدا لحظة أول لقائنا، لقد كانت رواية وضعنا عنوانا لها، وتحاورنا حول تفاصيلها، ومن ثمّة، اعتادت أرواحنا أن تلتقي، دون أن نحدّد للقاء موعداً.

وبتذمر أثقلني، وجدت نفسي عاجزة عن النزول من سيارتي، وبقيت داخلها أعيد تقييم الأسباب، وبكثير من الأسى والحسرة، أختصر معاتبة مراحل الطفولة والشباب التي عشناها معاً، وتغيّرت أثارها في بحر التضاد، تتلاطمه الأمواج القوّية، وتملأ طريقه سهام الغدر والخيانة لذكرى الطفولة والشباب المسافرة في مقلتيه المتلألئتين .

آه ..لقد طوى الحزن والألم أجنحة الحبّ الذي كان يلفنا، تلك القوّة التي كان عذابها أكبر من حلاوتها، فغدونا هياكل محنّطة تعبث بنا رائحة الدم العفن، والنار الملتهبة، ومزاجية الأهواء المتذبذبة، فحوّلت روحه الطاهرة النقية إلى انهيار وشرخ يسكنني.

لقد توارت ابتسامته المشرقة التي كانت تسلبني يوما ما، فتزاوجت وتمادت مع الوهم، مع عنف أحلامه البريئة التي تعاقبت، وتحوّلت مع سنين عمره البريء إلى ضياع، وانحنت أمامه في إذلال وانكسار وانهزام مـرير؟

عتّ بذاكرتي إلى مرحلة الطفولة، مرّة أخرى مشخِّصة وجهه أمامي، لأقف على عتبات هذا العمر البائس، وأحدّد نقاط التغيير، ومعاول الهدم التي رتبت حياة الهجر بيننا وحركتها اليوم في خطاه.

أصبح في نظري كالمنافق، أو كالسياسي، يزاوج بين الحبّ والمصلحة بخبث الحاجة والضرورة، وقلت في نفسي:

ـ ويحي مالي أتحامل عليه، وأنا التي أحيته بقوّة، أو كأنما أفرطت في لومه على تحوّله، فمرّة أجد الحبّ يجرني نحوه، وتقف الإدانة ساعة التحوّل، ومرّة يدفعني العقل إلى التفكير مليا في حيرتي فأردِّد:

ـ حبذا لو يتراءى له زيف عالمه، فيخمد غليان بركانه، ويبعثر أفكاره الخاطئة، واحتمالات رفضه لهذا الواقع، ويدرك جهل تفكيره المتطرف ومعاناته المستمرة.

لقد ضقت ذرعاً بتلك الوصايا التي قيّدتني بنظريات وأطر لا يمكن تجاوزها، وهو اليوم محاصرداخل زنزانتهم .

ـ آه يا رياض لو أنك تدري !

أود لو أنهي هذا التمرّد فيه، وما احتوته الأسطورة على أنه أحبّني يوما، وها هو اليوم يثقلني بتوجعات تؤلمني؟

ينفطر فؤادي لرؤيته هكذا، وأحاول أن أقترب منه مداعبة إياه بحنو، كما كنت أفعل من قبل، فيضمني إلى صدره، وأسكن في بحر عينيه، وألامس شفتيه بابتسامة كانت يوما تسلبني.

ما أجمل الصمت في عينيه، ولكن بعد الآن أخشى أن ينهرني بحدود الذات، ويقتلني أنا الأخرى؟

جئت إليه، مساء أمس، ولما رأيته بُهت، لقد جاوز الحدّ في معاملة نفسه على اعتدالها واستقامتها ووسامته، وكرد فعل غير مباشر مني، ارتجفت يدّي وسبقت صمتي، فوقعت على كتفه، وكأنما وقعت عليه الجبال، انسحب دون أن يلتفت إليّ؟

لم تكن مفاجأتي كبيرة لأن "الإدراك تَعَرُّف" كما يقال، وما كان من خبراتي الماضية معه إلاّ إدراك تصرفه المحتمل حيال هذا الأمر، ولا غرابة في ذلك، عندما يتغير عنده المجتمع والأخلاق والحدود؟

كانت آخر محاولة لاسترداد ما ضاع مني، لطالما كان لي الدفء والحضن، واليوم تستفزني برودته، ويقتلني صمته الدامي.

اعتلت وجهي ابتسامة حزينة، تغازل دواخله، حجبت إخفاقي في الوصول إلى براءته، لكن حتمية المنطق عنده، أو ما يزعم أنه منطق بدّد حالي، وغيّر مجرى اتهامي، ومحتوى أفكاري !

في حين رجوت مراوغتي أن تختلي بمنطقه، وتستردّ ما ضاع من قلبي معه، كنت أرى في مغادرتي المكان نشوة الانهزام وهي تثلج صدره، ونهاية الحلم تساير خطواتي، خطـوة، خطـوة...

كنت أحاول أن أستقرئ هذه النهاية لخطواتي عند العرافين، وأشفى غليلي منه، فتراءت أمامي قائلة :

ـ لا تستعجلي الرحيل، فقد ينير التعقل والإدراك في مباغتة الزّمن مرّة ثانية طلاسم الاعتذار عنده، ويبدّد الغشاوة عنه.

راودني الشك مرّات عدّة، و لكن لم أكن متخيّلة، و لا حتى واهمة، بأن حياته رتبها كما يحلو له الآن، دون وضعي

في خريطة حساباته المنطقية، ولو على الهامش، فقد يعيد الترتيب ويتذكرني من جديد عندما يدير بصره نحوي؟

بل راودني شك فاق كل المرّات السابقة، والاحتمالات المبررة، بأن ظروفه التي هو فيها، كانت بطبعها لا ترحم وشرسة، فوقع في مصيدتهم، مصيدة العنكبوت التي نصبتها لفرائسها باسم الانتماء !

وباستمرار مناجاتي له، رحت أبحث في فكري عن شيء يدينه، أو يرفع التهم عنه ومواجهته بحقيقته التي كان يحاول إخفاءها عني قائلة:

ـ أعتقد في قرارة نفسي أن أكثر ما تحتاج إليه الآن، هو مرفأ الأمان، وألاّ يشار إليك يوما ما بأصابع الاتهام.

ـ وهل يمكن لي أن أسقط عنك يوما آلاف الأصابع، وقد قتلت عقولا كانت تعدّ الحسابات الجيدة، وتحاور المنطق بفلسفة هي أبعد من أن تقف عند جدال عقيم، أسس للاختلاف وتوضيح الرؤى....

آه ...

ـ هل يمكن ذلك؟

كانت القائمة حبلى بالأسماء المختارة لقطع الرؤوس، وكانت المواجهة معه أشبه باختزال الحروف، فكانت عيناه تضيقان وتضيقان، وفي ضيقهما وجدت نفسي أسبح داخل لآلئها، وبتحديقه المتواصل، وجدتني أصغر وأصغر داخل قزحية عينيه البنيتين، كانتا تشعان ببريق ألهبني، حتى ارتعشت بقوّة.

شرب القهوة، وقبل أن يعيد ارتشافها للمرّة الثانية، اندلق الفنجان من يده، ورمقني بعينين شاخصتين، حاولت مستغربة أن أغيِّـر مجرى الحديث معه، فلقد كان لارتجافي منه ارتباك في حركة يده، واتجاه نظره، وتنهيدة أرسلها كريح لا تبقي ولا تذر، وحاصرته بتحديقي الاستفهامي قائلة:

ـ عجبي كانت السلطة تسكت العقول في الزنزانات (الموت البطيء)، وأنتم تقطعون الرؤوس، وتستعجلون الموت البعيد؟

ونحن نتحدث عن قطع الرؤوس، ارتسمت أمامي صورة الدكتور الشاعر محمد الصالح باويـة، وروحه التي اخترقت خيالي، فجأة، وعقدت لساني عن مواصلة الكلام معه.

تذكرت موعد الفحص، يوم الأحد، من سنين الدّم، استقبلنا بكثير من الهدوء والرزانة والمحبة.

وهو يحدثنا عن استقامة العظام، راعني الانتباه إلى جسمه المصلوب باستقامة تلفت النظر، وقلت في نفسي:

- يا إلهي عظامه كلها مستقيمة، ومازحت نفسي (لأنه طبيب عظام).

طالت دردشتنا معا، لأن الموهبة جمعتنا في إحساس واحد، وكم فضحنا الإبداع أنذاك !

كانت عيادته متحفا جميلا، تزينها صور عظام وهياكل أرواح ترفرف في السماء، أو هياكل محنطة تبعث في النفس الرهبة، المكان يبعث على الخوف من نهاية حياتنا التي تؤول لا محالة إلى عظام نخرة.

فجأة تذكرت مدينة الجن والملائكة، باريس، لم تبهرني المدينة بقدر ما أبهرني متحف اللوفر، الذي يحتضن الحضارات الإغريقية و الفرعونية و الإسلامية و الإفريقية ... بتماثيل أشبه بالحقيقة، وانتابني إحساس غريب تجاه لوحات " دو لا كروا " إذ أتعبني تفكيري وشرودي أمام لوحاته التي جسدت العبقرية و الألم .

كانت لكل لوحة حكاية، و لكل حكاية زمان ومكان، وحتى لوطني حكاية.. واستفزني سؤال اللّحظة يقول:

obeikandl.com

ـ كل هذه الحضارات كانت تحمل الجمال، ونحن ماذا تركنا للتاريخ؟

تركنا الخراب والموت، والدمار والحروب، وإبادة الشعوب، والكلمة للأقوى.

ـ ماذا تركنا للأجيال القادمة، من الآثار والمعالم التي تشهد على رقينا الفكري والإنساني؟

وقتها فقط أدركت معنى الآثار وقيمتها، وما معنى سرقة الآثار وتحنيطها في جغرافية أخرى، وكيف يمكن لأمة أن تبني مجدها على حساب حضارات أخرى؟

وأنا أجر أذيال الخيبة و ذاتي المتعبة، أحاول أن أختار بين رفضي لكل شيء، وبين أن ألزم الصمت وأعايش التماثيل المحنطة، كنت أخوض معركة السؤال والجواب بداخلي، وأعيد الحسابات في وطني، وأرتب الأرقام من جديد !

كنت كلما قرّرت المقارنة بين وطني، ومدينة الجنون في كل شيء، في النظام، في القانون، في الجمال، يغلبني عشقي وحنيني إلى وطني بامتلاكه السحر، والجمال، وروح الشهداء ترفرف حوله وتحميه، فأغفر ذنوب ما فعل الساسة بنا؟

.....أسئلة كثيرة راودتني في عيادة الشاعر الدكتور باوية التي تركتني أرحل بتفكيري إلى اللوفر وخشيت عليه في هذا المكان من الموت الأكيد، قلنـــا له :

ـ المكان خطير لعزلته رغم وجوده في المدينة، ونظرا لغياب الحركة فيه.

ابتسم الدكتور الشاعر ابتسامة هادئة، وكأنها تودعنا إلى الأبد، وبنفس مطمئنة قال :

ـ لا شيء يبعث على القلق والخوف، لم أفعل شيئا أدان عليه، أنا طبيب وشاعـر .

ودعنا الدكتور الشاعر بابتسامة تبعث على عدم الاطمئنان عليه، ووقتها قرّرت عدم العودة إلى هذه الساحة المريبة، وأنا أحاول أن أنسلخ من خوفي باغتتنا سيارة بيضاء، كان صاحباها مضطربان، عيناهما تقدحان بالشّـرر، وعلامات الغضب بادية على وجهيهما والخوف يميز مسلكهما؟ حينها أدركت في قرارتـي أنّ حيـاة الدكتور الشاعر في خطر ولا أمـان عليه، لم أكن أعلم أن الخوف والأيام المعدودة التي حسبتها بداخلي كانت هي نهايتـه؟

ومضت أيام وشهور، واختفى الدكتور الشاعر، وما بقي بيننا إلاّ الإبداع الذي فضحنا أنذاك، والموهبة التي جمعتنا؟

تألمت لاختفائه، وأصبح شبح صورته والعظام تطـاردني في خيالي، وعمّت الفوضى الكل، لتحكي المأساة باستمرار، واختفى الدكتور الشاعر محمد الصالح باوية كغيره من رموز هذا الوطن، الذين اغتيلوا غدرا وانتقاما، وضحايا، اغتيل بختي بن عودة، و عزالدين مجوبي، وعبد القادر علولة، وجيلالي اليابس، ويوسف سبتي، والطاهر جاووت.....

اغتيل الدكتور الشاعر، تاركا لنا من أشعاره " أغنيات نضالية"[16] والقائمة طويلة .

كانت تعنيني حكاية الوطن، الوطن الوحيد الذي اغتال مثقفيه، اغتيال أسكت الحقيقة، واستصغره هذا اللاشيء وعاث فيه فسادا.

إذ كانت عيوننا تتبادل التهم، والإدانة، وقراءة عيونه إدانة لاتهامي الذي لم يحاول أن يفرّ منه، وانسحب في صمت الجبنـاء.

[16] اغنيات نضالية (شعر) للدكتور محمد الصالح باوية الذي فقد في المأساة الوطنية، كغيره من الأسماء المذكورة والمغتالة.

– 5 –

ما تبقى من العمر آخر ما نطق به ورحل، وتركني في زاوية من البيت الكبير، ألملم أنا الأخرى ما تبقى من شظّايا العمر معه، رحل، لقد رحل.. !

قلتها وأنا أشعر بمرارة وألم مضنٍ ، برحيله أسمع صفير الجدران، وهي تثير قلقي، فتحت عيني بعدما أغمضتها من هول رحيله، واتجهت بنظري إلى الصّورة المعلقة على الحائط.

كان يبتسم، وكم كنت أحسده على تلك الابتسامة التي تسلب روحي، وتدغدغ حنيني إلى معانقته .

كانت زينب بنت الجيران تحسدنا معا، تحبّه حدّ الجنون، كانت تقول لي دوما:

ـ إنه لي وحدي، ولن أتركه لك، طال الزمن أو قصر، ستندمين يا هند؟

كان في وعيدها خوف من المجهول، لكنه اختارني أنا وفضل اليوم الرحيل من أجل أفكاره وقناعاته.

- هل تفرح زينب برحيله عني؟

- وهل كان في رحيله دلالة على رحيله اليوم؟ !

آه .. بابتسامته استعدت إحساساً باللّذة تغمرني، وشوق يمنحني الأمل في رجوعه يوما ما، لقد شعرت بالخيبة وبالخوف من تجاعيد وجهي التي أتحسسها كلما رحل وتركني، وكأن وجوده معي مرتبط بتجاعيد وجهي التي تحيا وتكبر بغيابه عني؟

الحقيقة أن ما كان بداخلي هو القدرة على فقدان ما نريد، في لحظة هم يقرّرونها والتي مصيرها الزوال والاندثار... ! ذاك ما كنت أثرثر به في سرّ ي ؟

حاولت أن أفقده هدوءه، وهذا بسبب القشعريرة والارتباك والألم الذي أحدثه في نفسي، ولكن دون جدوى، باءت كل محاولاتي بالفشل.

لم يكن الخيال عندي هو الوهم، أو البعد عن الواقع، أو ضرب من الجنون، بل كان تركيبا لحياة جديدة، بجمال الحقيقة التي صدمتني الآن، وشتّان بين خيالي عندما استعملت

الحقيقة للكشف عن الجمال في نفسي، وتحريك المشاعر، وبين خياله الخارج عن روح الجمال؟.

ومن ثمّة صدّقت القول القائل:

"لا أحد يعرف هل أنت جبان أو طاغية أو تقي إلاّ أنتَ ، فالآخرون لا يرونك أبداً، إنهم يتعرفون عليك بافتراضات خاطئة"[17]

وبلتالي تحدّت الروح ذاتي، لتنتهي إلى إثبات ذات أردتها كاملة فيه، والوعي بحركة الفكرة لديه، لكن أعود لأقول:

ـ وحده يعرف من هو؟

لم تكن طريقتي الافتراضية التي أخضعتها للتجربة قد أمدّتني بشيء أكبر من اللّحظة التي عشتها معه، واكتشاف علاقة ما، ولكن بأسرع وقت ممكن هو الاختلاف في البداية، وقد يكون حلاً جديداً تعجز الغريـزة أن تأتي به، هكذا هو، أو كما تصورته في عقلي؟

[17] مونتاني.

في الحاضر كان الماضي هو لغتي، وكان الراهن يساعدني على تحديد الذكريات الجميلة، فقد أتذكر أنني التقيت بشخص لم يكن من الوجوه المألوفة، ولأننا لم نتعرف على بعضنا البعض، كان للذكاء دور في اكتشاف الطرف الآخر، للعلاقة التي كانت أشبه بالطيف الذي يلامس الروح البريئة، حينها أدركت أن تجربة الحبّ أو الحبّ يخرجنا عن ذاتنا، لنتجه نحو أرواح أخرى، وليست بناء على مقدمات منطقية، لدرجة يغيب فيها العقل، وتكون المشاركة الوجدانية هي القلب؟

ولم تكن حرّية شعوري، وهما خادعاً، ولا حرّية مطلقة، لمجرد أنها فكرة خطرت ببالي وأردت تنفيذها، مثل ما فعل لافكاديو[18] وهو متوجه إلى روما على متن القطار .

لافكاديو خطرت بباله فكرة جنونية، وهي أن يدفع بعجوز كبير كان قربه من القطار، ونفذ الفكرة المتوحشة، لمجرد فكرة مرّت بذهنه دون تحكيم للعقل، فالشعور كان أعمق وأسبق من أن تكون الفكرة مجرد فكرة؟

وقد تولد الفكرة حربا انتقامية يندى لها الجبين، حرب على الذات وعلى الأرواح وعلى الذاكرة، وإلاّ كيف تكون

[18] أندريه جيد في رواية الفاتيكان(Les caves du vaticane)

الحرب بمفهوم التيار الحداثي الجديد، فيتحول التنوير إلى خداع، والتحرر والتقدم إلى هيمنة ورجعية؟!

إذن لم تكن فكرة " أندريه جيد" فكرة بسيطة لمجرد الاندفاع، بل كانت أعمق عندما قرّر رياض الرحيل عني، وأن يقبع في زنزانته، حبيس أفكاره وضيق نظرته، مندفعا لفكرته، وسجينا لإرادته المزعومة بفكرة الحرب على كل شيء؟

ورحت أتساءل:

ـ هل يمكن أن تتحوّل الفكرة إلى حبّ ؟

ـ والحبّ إلى موت قاتل؟

ـ وهل يمكن لزينب أن تنتقم مني؟

كانت تبدو أسئلتي أمامه تفاهة، أو مجرد استهتار أو لا شيء أمام تصلب أفكاره، أحيانا أخجل حتى من طرحها بداخلي، والدواخل مرهونة بقلب يتحسر وعقل يستفهم؟

لم يكن الحبّ معه ضربا من الجنون أو الخيال، ولم أجث أمامه وأرتكب المعاصي والذنوب للفوز به، فقد تكون الخطيئة أشبه بحالة سكر، يغيب فيها العقل ليستفيق على حقيقة الأشياء، في حين يصعب نسيانها إلى الأبد؟

oueikandi.com

كنت متعبة من صمت اللّحظات، واسترداد الذكريات وخيبات الأمل، كنت أمنع نفسي من التصادم مع نفسي التي سوَّلت لها الخطيئة مداعبة الرذيلة، وأنزل بها منزلة وضيعة، فانتابني إحساس بالألم والفزع، وحالة من الغثيان تطبق على صدري.

وقتها أدركت جيفة أفكاري النتنة، وقيمة الأخلاق في النفس، ثم أدركتني التساؤلات الاستفهامية تفرض نفسها فرضا على عقلي قائلة:

ـ هل يمكن أن يتصور الانسان نفسه حراً، دون مراعاة للضوابط الأخلاقية؟

ـ وهل يمكن أن ينعزل عن العالم، لمجرد أنه أراد أن يكون حراً، ويحقق حرّيته مهما كانت ضد بيئته؟

ـ وهل تخضع حرّيته للعقل، أم تكون مجرد لحظة يحاول السيطرة عليها دون أدنى اعتبارات أخلاقية؟

ـ وهل يخضعها أم يقيّدها بأخلاقيات المجتمع؟

ـ وهل يفرض علينا المجتمع أخلاقاً، نرفضها ونعتبرها حداً لحرّيتنا، ومن ثمّة يكون التمرّد على كل شيء؟

obeikandl.com

وجدت رأسي مثقلا بالتناقضات، وبقيت ذكرياتي ملفوفة في أوراق بيضاء، وفي ليلة باردة ممطرة، وعواصف رعدية قبعت أمام كانون من الجمر، كان الحنين إليه أقرب من الجلوس أمام المدفأة.

كنت أود أن أنظر إلى توهج الجمر، ورائحة الحطب وهي تحترق أمامي، أتنفسها بعمق حدّ السّبات، ويقاسمني توهج الجمر حرقة اشتعالي، وأحلامي المنزوية هناك في الغرفة المظلمة!

ـ هل هو القدر مرّة أخرى يحاول أن يعبث بي، أن يستفز كبريائي، أن يحوّلني من امرأة قادرة، متحدية، إلى كومة جمر ملتهب تعصرها الحرقة.

خيّل إليَّ لحظة انكساري أنني شهرزاد في استمالتها لشهريار، وأنني عبلة، و ليلى، وكل النساء، وأنني جازية التي هام بها الشيخ ابن هاشم، كما تقول أسطورة الجدّات والتي كانت أجمل نساء القبيلة، وخيّل إليَّ أنني وأنني ...

وبدهشة ماكرة مني، صنفت كل واحدة منهن عبر الزمن واللّحظة، ورحت أعرّي كل واحدة عن بيئتها وأجوب في فكرها.

77

لأنني كنت بحاجة إلى استعادة توازني وانهزامي، ومحو صورهن من ذاكرة التاريخ والعشق الانهزامـــي؟

obeikandl.com

– 6 –

كـان صمتي يرتعش، وأنا أتظاهر بالصبر وتمالك أعصابي أمام الصّور الدامية التي تبثها القنوات الأجنبية، وكانت إدانتي لرياض أكبر من الصّور التي أراها قائلة:

ـ هو من يقتل؟

انتفض من كان حولي على مائدة الشاي، صديقات الطفولة، ومراحل الدراسة، وقد استفزهن قولي واتهامي الخطير.

قالت أم الخير:

ـ هل جُننت إلى هذه الدرجة؟

ردّت ميمونـة:

ـ إنه رياض، هل نسيت ما كان بينكما؟

ـ هل نسيت أننا كنا نموت في اليوم ألف مرّة، و أنتما تتبادلان الحبّ بالنظرات ؟

حدّقت فيهن، ولم أكترث لقولهن، فلقد كنت في حاجة ماسـة إلى الحقيقـة، كانت المظاهرات تستفزني لأبحث عن الحقيقة، والاغتيالات... الحقيقة لا غير ! وما يجري في الكواليس وفي الملفات عن الحقيقة، كنت أحاول أن أبحث عن الحقيقة في وطني الذي يغتال أمام ناظري؟

في لباس مليكة الجلبـاب، وخوفها، وفي تحوّل رياض وتمرّده على قوانينالحبّ والمجتمع؟

ـ هل ولّد لديه رفضه انحلال المجتمع الأخلاقي، والفساد السياسي، والاقتصادي غريزة التغيير نحو الأفضل؟

ـ هل يمكن ذلك؟

لقد سئمت من القنوات الأجنبية، وهي تنطق بالحقيقة، قد تكون كل الحقيقة، ولكنها ليست الحقيقة التي أبحث عنها، تماماً كخطواتي الأولى، خطوة، خطوة..

الحقيقة في حكايات أبي المختار عن الثورة، والثورة، وعن القرية الآن.

هذا الرّجل الذي يملؤني رغبة في الحديث، رغم تعب الزّمن لا يزال يقف أمامي، شامخا، تمدني عيناه ببريق البنت المدلّلة، البنت التي يحبّها إلى الأبد، البنت التي يأخذها معه عبر شوارع المدينة الريفية، ويعود بها إلى البلدة النائمة في القيل والقال، ورغم صمتها الدائم يدهشك سباتها، كان كل شيء يبعث على التساؤل، لم البلدة دائما في سبات عميق و لا تتحرك؟

كانت تدهشني المسؤولية في قريتي، وتدهشني الثورة في قريتي، ويدهشني أهلي لصمتهم؟

يمزقني الفضول تمزيقاً موجعاً، فيثير الرغبة عندي، في أن أصفعهم حدّ الجنون، فقد أنطق في جنوني بالحكمة التي تخرجهم من سباتهم؟ وأن أغلق كل أبواب القرية بالسلاسل، وأن أرفع صوتي في وجههم. أين الثورة منكم؟

ـ هل الثورة عمارات فاخرة، وسيارات مرقمة، وأرصدة مفتوحة على الأرقام وتسارعها، والأراضي الشاسعة وقيمتها و.. و..؟

ـ هل الثورة شهادات كتبت عليها كلمات، مجاهد، معطوب حرب التحرير، وتعويض بالملايين وتزييف للحقيقة!؟

وخوفاً من الحقيقة وفتح الملفات العقيمة، أردت أن أصمت، وكان في صمتي حقيقة أخرى لطالما بحثت عنها، مخبأة في زنزانة من زنزانات هذا الوطن المغتال!؟

أدخلتني المسؤولية في دوامة من الإحباط والفشل، وقد عهدت تقلد المناصب من الوجوه نفسها، والتي سئمت وجودها، وأتعبتني انتهازيتها، لقد علمتني التجربة ألاَّ أتعاطف مع أحد منهم، لأن القرية كانت تحتاج إلى الكثير، وسكانها يحلمون بالكثير، ولم أكن قادرة على الإساءة لأحد، فالتكلم في القرية يورثك التهم الكبيرة؟

التكلّم عن خباياهم وإدارتهم اللامسؤولة، يكلفك الكثير، سهل جداً أن تحاك ضدك الإشاعة، وتروجها الألسّن وصعب جداً أن تسكتها؟!

أعزّ ما تملك المرأة هو شرفها، والشرف في القرية لا يعرف التنازل، فكانت الخطوات محسوبة، ليس خوفاً بل لأن قطيعا من الغنم يؤدي الواجب، ويسكت القضية؟

قطيع من الغنم يدخلك السجن، ويلبسك التهمة، و قطيع من الغنم يفتح الأفواه، وقد يسكتها إلى الأبد، أصبح لقطيع الغنم ألف حساب، لأنه التجارة الوحيدة في التعامل وقضاء المصلحة؟

وكي لا يحسب لقطيع الغنم ألف حساب، وجِد القطيع ميتاً في ليلة باردة، دخل الملثمون وأجهزوا عليه بالسكين، كان

القتل مباحاً، وكانت أصابع الاتهام دائما تعرف أين تتجه، دون أن تترك لك فرصة السؤال والاستفسار؟!

وكانت حقيقة أخرى تقول:

ـ بدل أن يختطف الرّجال، ويصبحون في عداد المفقودين إلى الأبد، يكون التخويف والترهيب والترويع فيما يسترزقون؟

وأخرى تقول:

ـ اتهم الذئب بأكل يوسف، وأصبحت التهمة تطارده وهو برئ من دمه؟

هكذا هي دائما الحقائق في وطني، مازالت قوائم المفقودين طويلة، ومازال البحث عنهم قائما؟

ومازال الذئب متهما بدم يوسف! وقد دفع الثمن، كما دفع يوسف ضريبة جماله وحبّ يعقوب له!!

داخل هذه المسؤولية تكتشف لك الفراغات، والقرارات الهزيلة، والوعود الكاذبة، وبأقنعة مختلفة ألبست القرية الجبن والجهل والضيّاع، وظلّ وجه القرية كما هو، لم يتغير، حتى مسؤولوها لم يتغيروا، وقد يجيء حين من الدهر يلقي الحوت ما في جوفه، والحقيقة الأخرى التي مازالت تقول :

ـ من يقتل من؟

هذه الحقيقة التي تركت الأقلام تكتب، تبحث عن نفسها في الحقيقة، أصبحت الساحة تعج بالأسماء، حبلى بالفوضى، والمرحلة كفيلة بأن تعلي أصواتا، وتلمَّع أخرى من الداخل أو من الخارج..!! وتخرس أصواتا إلى الأبد، وتعزّ من تشاء، وتذل من تشاء؟

أقلام كتبت عن الوطن وآلامه، كتبت في السياسة والجيش وعن الجيش، الجيش الذي لم يسلم من الاتهام ولم يكن الراهن يبعد الشك، وكل الاحتمالات تزيد من السيئ إلى الأسوأ، خرج الكل عن صمته، الضد كان دائماً هو السيد، والسؤال كان يطرح نفسه ألف مرّة وبإلحاح، من يقتل من؟

كنا نبحث عن الحقيقة في أنفسنا ولكن..؟

لدرجة أنني وبسخرية متعمدة زاوجت بين الفكرتين قائلة:

- من يكتب لمن؟!

لم يستطع أحد أن يسكت لغة الرصاص، أو يوقف نزيف الدم، الاعتقالات طالت القريب والبعيد، انتعشت ممارسة القتل والقتل المضاد، وسقوط الضحايا يوميا، أما قائمة المفقودين فكانت تطول وتطول..

كان الحوار عنيفاً، لدرجة أنه اغتصب مني كل شيء، حتى الحقيقة التي طالما كنت أبحث عنها في كل شيء، اغتصب الروح والأماني، وأضحى التنازل من المفارقات العجيبة، وأصبح عشق رائحة الدم يبزغ مع كل يوم جديد.

نحن من نصنع طغاتنا بالتصفيق لهم، فدفعناهم إلى الرضا عن أنفسهم، وإلى مزيد من الطغيان!

نحن من خلقنا وابتكرنا وزرعنا في هذا السيّد نوعا من الغرور بالهتافات والتهليل، فاستمر في طغيانه؟!

كان الجرح مفتوحاً على كل الأعمار وما بقي من الجسد إلا شبه امرأة تحرقها الفجيعة، أو حلم طفل بعودة أبيه، وأصبح من السهل أن تكون مجنوناً وتؤخذ الحكمة منك في بلد الجنون!

وكما يقال:
ـ عاقل معي، خير من مجنون ضدي؟
فقد يكون في الجنون حماقة أكبر من الفكرة!.

obeikandl.com

- 7 -

أطفـأت هند التلفاز وفتحت النافذة من جديـد، وفي نفس الغرفة الضيقة، أطلقت زفرة عميقة في الفضاء الرحب، وجابت بنظرها المكان القريب من العمارة الشاحبة، تحدق في الباعة وفي المـّارة وهم يتزاحمون ويلهثون في سبـاق مع الزّمن، فتتعالى الأصوات مزمجرة أحيانا، ويعم هدوء نسـبي إلاّ من صوت أطفال في الساحة يلعبون لعبة الغميضة أحيانا أخرى...

كانوا يلعبون لعبة الغميضة ويتمرغون على بقايا حشيش يميل إلى الصفرة، يغنون لغة الأطفال، لم يحفظوا الأناشيد من الكتـب أو في المدارس، تعبت الوصايـة من تلقينهم الأناشيد المسطرة، وتعبوا هم من التخويف والترهيب؟

كانوا يضربون بها عرض الحائط، لأنها وببساطة جوفاء، ميتة، يغيب فيها الإحساس، لكونهم لم يعيشوها بأحلام الطفولة وآلام الطفولة، كانوا يردّدون مثنى وثلاث و.. و...

ـ شرطي المرور.. المرور.. أعطني صفارتي.. صفارتي.. خذي.. خذي.

وهم يشكلّون حلقة، ويهتفون بصوت واحد.

فعلقت قائلة :

ـ ما أتعس العيش تحت القبعة التي تسرق منك الحلم، وما أضيق الحلم في ظلّ عمامة"[19] ؟!

تدخل ابنة الجيران خديجة الحلقة وهي تقول:

ـ سلسلتي.. سلسلتي سقطت لي في الواد.. الذي يحضرها، أعطي له حاجة..[20] (ثم تجلس).

ترفع الأيادي إلى السماء، وفي حلقة دائرية تدور حول خديجة، وتردّد خائفة وبصوت مسموع:

ـ "كان علي بابا رئيس العصابة، يضرب بالسكين ما هو حسين، السبت، الأحد، الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة، كان علي بابا رئيس العصابة.. "

وتعاد الكرّة مع كل واحد وواحدة، ويكون رئيس العصابة يقطع الرؤوس بالسكين ..

لقد كان قول الأطفال ووعيهم بما يجري في الوطــن أكبر من تلك الصّور ومن الحقيقة نفسها؟

كنت في حالة ترقب واندهاش وتحليل، فقد كانت حقيقة الجرح الغائر أصعب من تضميده، لقد كبر الأطفال ولم يعودوا يؤمنون بما نكتب لهم، كانوا يبحثون عن فكر غير فكرنـا.

لقد عبروا عن يومياتهم المغتالة، وأحلامهم المصادرة دون أن يستأذنوا منا، لقد أصبحوا سجناء الــدّم في فضاء أخضر؟ !

أيعقل أن يؤلف الأطفال أغانيهم، أن يمزجوها بيومياتهم، وأحلامهم المغتالة في برك من الدّم القاني!!

---

[19] الكاتب رابح خدوسي.

[20] أغاني يردّدها الأطفال في الشارع.

هم بذلك يعلنــون تمرّدهم عنا، لأننا لم نحقق لهم الأمان ولم نفرض لهم الحماية.

الحماية التي أصبحت تقتصر على الأوامر والنواهي، وتلك التعليمات البيداغوجية التي لم تعد من أولوياتهم في ظلّ غياب الجوّ العاطفي الذي يشعرهم بالثقة والفرح.. ومن ثمّة أرادوا توصيل فكرتهم ومشاعرهم بإعادة الاعتبار لهم بهذا التمرّد أو بهذه التلقائية في التعبير عن رغباتهم ومكبوتاتهم.

ولم نكن بحاجة إلى تنشيط مخيلتهم، فلقد كانت الأحداث المروّعة كافية لإثارة الانتباه، وقابلة للصيّاغة في صور متسلسلة لا تبرح مخيلتهم، لإعادتها ببطء إذا ما رغبوا في ذلك أو إذا اشتدّ تأزم الوضع.

كل هذه المعاناة تدل على قدرة هؤلاء الأطفال على الربط بين القول والتعبير عنه، والواقع الذي تحوّل في ذهنهم إلى صورة قاتمة أضحى فيها الحلم صعب المنال، واضطرابا يوميا يخفي وراءه عجزا على التكيف الاجتماعي، وبذلك يرفضون الانصياع لقانون الكبار!

فجأة شدّت انتباهي جموع تركض في اتجاهات مختلفة، وأخرى جاثمة كأن الأمر يستدعي الحذر أو الخوف من شيء ما...

وأنا على هذا الحال، مشدوهة البال إذا بنبرة صوت حزين قرب العمارة المجاورة تجتاح سمعي، أنين طفلة، تردّد:

ـ "...يوحْشِيشَة مات، خلاَّ أربع بنات وحدة عورة، وحدة تلتقطي الزَعْرُورَة، وواحدة تقول بابا مات ما خلانيش وين أنبات".

انتفض جسدي كطير مذبوح، ارتعش لأنين الطفلة، كان لهذا الأنين أن يحمِّلني خطايا الليل والنهار، ويعاقبني بدموع لم أستطع أن أحبسها، وأسرعت الخطى نحوها، أنزل الدّرج في حالة من الهستيريا والحزن، اتجهت نحوها وأنا أضمها إلى صدري قائلة:

ـ ما اسمك يا صغيرتي؟

أجابتني وهي تمسح دمعها الجارف:

أحلام ..

ـ أين تسكنين؟

لا أعرف!

ـ ولم جئت إلى هذا المكان الموحش؟

أبحث عن أمي وإخوتي، هنا ذبحوا، هنا!!

ـ وأنت أيها الصغير ماذا تفعل هنا؟

أنتظر أبي، أخذه رجال الدرك في سيارتهم، وبقيت أنا هنا، أنتظره وأبكي، لقد تأخر كثيراً...

كان المكان عبارة عن بقايا أبنية وركام من المنازل المحروقة، وأرض ملطخة بدماء قانية، أخذت الفتاة الصغيرة معي، وحاولت تهدئة الصغير هيثم بالبحث عن أحد من أولئك الذين يعرفهم في الشارع، تركته عند أحد الباعة يعرف عائلته، فقام بمرافقته إلى منزل والده.

كانت أغنيتها التي تمزقني تردّدها كل مساء، تجلس قرب النافذة المطلّة على البحر وتبدأ في أنينها وتبكي، تبكي، وسكاكين اللحظة تشوّحني في اليوم ألف مرّة.

في ليلة ما تركتها تبكي، تبكي، حتى نامت على دمعاتها، فلقد أتعبتني أحلام بوجعها، وقد يكون في بكائها

obeikandl.com

المتواصل راحة هي تبحث عنها، كما أبحث أنا عن الحقيقة في بكائها؟

obeikandl.com

– 8 –

في الفترة ذاتها كان التطرق إلى النظام من القضايا الكبرى التي نبتعد عنها، ويبدو أن السلطة كانت نموذجاً إشكالياً في فهم ذلك الانفصام، الذي يبتعد عن العقلانية في العيش !! ونرفض أن نحيا فيه، وأن نكسر الجليد الذي بات من المستحيلات ..

كانت صناديق الخوف تلبسنا أقنعة الازدواجية، والعيش داخل دهاليز الرياء والسمسرة والنفاق، كانت المعلومات عن النظام مقتضبة والمواقف هشّة والشجاعة جبنا، فتشربنا الوطنية حدّ النخاع، لكنها اغتيلت في نفوسنا يوم مات الرئيس، مات الرئيس، وأذكر أنني عرفت حبّ الأرض والوطن من الرئيس ..

كانت فاتحة عهد جديد، كشفت الأوراق السرّية وبعثت الوجوه من جديد وخرجت تعلن واقعاً جديداً غيَّر المفاهيم وأزاح الستار عن تلك السراديب المغلقة...

ربما لم نكن من نفس الفصيلة، ولكن كنا دائما نحاول تكسير الجليد، وشاء القدر أن يلعب بالعقول والأرواح والوطن على كف عفريت؟!

مات الرئيس، مات بومدين..

كان يجيد صنع القرار، سياسي محنك، وأب وقور بهيبته، كان في شخصه روح الشعب فأحبّه الشعب، مات الرئيس بشخصيته الغامضة، وماتت معه الوطنية والوطن؟!

هكذا ودون مقدمة حقيقية، رفع الستار عن المسرحية وأسدل بعدما أحرق ودمر وشرَّد ويتَّم، ومع كل هذه الآلام كان عزائي تلك الرسائل التي أخبئها بداخلي خوفاً من تطور المسرحية، فيرفع الستار من جديد، ويغتالني وتحرق الرسائل تحت جنح الظلام، إذ كان يستحيل أن أجمع أو أفرق بين حبّ رجل وحبّ الوطن !!

خيّل لي أنني نائمة في قصر موصدة نوافذه بإحكام، كانت الدهاليز مظلمة، تملأ أنفي روائح الدم المنبعثة منها، كنت أحاول أن أخرج من هذه الممرات الضيقة، التي كانت أقرب إلى بعضها البعض، حاولت الاقتراب أكثر، فتحت النافذة الأولى، وضع عليها رقم (7) على ما أذكر...

كانت نوافذ الفكرة تفتح كل مرّة على باب جديد، يحمل رقماً أحاول تذكره، فيضيع هو الآخر من هول الصدمة، كانت الوجوه مكفهرة، مسوّدة، رائحة الرطوبة النتنة تخنقني، تصفعني كبرودة القطب المتجمد، أغمض عيني وأفتحهما عندما تصفعني تلك الوجوه التي كنت أعرفها.

هذه الزنزانة بها وجوه كثيرة.. و... لم أتوقع أبداً أن أجد صورة رياض بينهم، ولم أبذل جهداً في الاستفسار عن وجودهم، فقد كانت التفاصيل حريصة أن تظهر على محيّاهم.

وبخشونة قلت:

ـ من أنتم؟

ردّدت الحيطان صوتي، حتى أربكتني، لم أجد جوابا منهم، حاولت أن أجمع شتاتي وخوفي وأصلب طولي قائلة:

ـ أنا أعرفكم جيداً، أعرفكم؟

أنت كنت، ترفع كتاب الله ونحن وراءك نردّد :

ـ الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر ..

قد يكون حباً، وقد يكون خوفاً... لست أدري؟

وإذا بصوت مبحوح انبعث من بين تلك الوجوه الشاحبة قائلاً:

ـ الحمد لله.. أنتِ من جيل يذكرنا.

قلت :

ـ جيل غرر به؟

ويحاول الآخر الارتكاز على قدميه، ولكن خانته قواه من شدّة المرض، فسقط على صاحبه قائلاً:

ـ نحن سجناء الرأي؟!

سجنـاء الرأي، ولكن ماذا جرى وقتها، وقبل أن أسمع جوابا لما جرى حينها، إذا بغمامة سوداء تحجبني عنهم وبطيف رياض يقول:

ـ اسأليهم عما صنعوا بنا في غياهب الصحراء؟

صحراء قاحلة، لا طيور ولا أعشاب ولا حشرات..... لقد كنا كالأحياء الأموات في غياهب الصحراء؟

ونطق آخر:

ـ لم يكن لدينا الحق في الدفاع عن أنفسنـا، ودون أن نمـر إلى المحاكمة، ناهيك عن التعذيب؟

عودي إلى التاريخ، وارحلي من هنا..

obeikandl.com

اضطررت للخروج، ولم أعلم من الحقيقة شيئا، فكان موعدي مع التاريخ ضيقا؟

وجدت نفسي أقف هذه المرّة وسط ساحة النوافذ، وكلما أمد يدّي وأفتح الباب تشدّني قوّة مغناطيسية إلى الوراء للرجوع، لم أنسحب واندفعت بقوّة أفتح الباب على مصراعيه، أفتش عن الحقيقة وراء هذه الأبواب الموصدة.

كان الرقم هذه المرّة على ما أذكر (1)، غمرني إحساس بالرعشة والوقار في نفس الوقت، وغلبتني الفكرة القائلة :

ـ التاريخ حقيقة الشعوب.

فكان سي الحواس والعربي بن مهيدي وعميروش... في ألبسة خضراء، الحجرة تفوح منها رائحة المسك والبخور.

ابتسمت الوجوه عندما رأتني، وعمّت أساريري الطمأنينة، وتكدر حالي لوجودهم داخل هذه الزنزانة قائلة:

ـ أنا أعرفكم، أعرفكم، أعرفكم جيداً، ولكن لم أنتم في هذه الزنزانة؟!

نهض بن مهيدي مبتسماً، تذكّرت الابتسامة المرسومة على شفتيه وقول بيجار :

ـ لو عندي ثلّة من أمثال ابن مهيدي لفتحت العالم!!

قال :

ـ نحن سجناء الثورة؟

قلت:

ـ الثورة، وهل سجنتكم الثورة؟!

قال:

ـ نحن سجناء الثورة فقط، التاريخ كتب بدمائنا ودفن معنا، نحن تركنا لكم الثورة والوطن أمانة لكن...؟

وقبل أن أتفوه بكلمة كان طيف رياض يلاحقني، فإذا بي أجد نفسي مرّة أخرى في ساحة النوافذ، أبحث فيها عن تلك الرائحة الزكية، أبحث عن ابتسامة بن مهيدي، عن نظرات الحواس و.. و...

لم أجد تلك الوجوه النيرة، اختفت بوجود رياض الذي كان يلاحقني من زنزانة إلى أخرى. وعلامات السّوط بادية على جسده النحيف كله.

كنت أود أن أسأله عن سلطة التاريخ، وعن زيف التاريخ اليوم، عن زيف الرجال واغتيالات الثورة عن وعن...

خفق قلبي هذه المرّة بقوّة وأردت أن أفتح كل النوافذ، وأكسر كل القيود، لأعرف ما بداخل تلك الزنزانات...

غلبني البكاء حدّ الموت مرّتين، لأستفيق على حقيقتنا المُرة، والإدانـة الأبدية في محاولة تصحيح أخطائنا!!

ولمَّا فتحت الأبواب الأخرى كانت الأقلام والأوراق مبعثـرة، تخط على الورق أشعارا للوطن والحبّ ، للحداثة التي أذنت بنهاية الفرد، أو كما قال فوكو بنهاية الإنسان!! مجتمع أحادي البعد، مفرغ من الخيارات الاجتماعيـة ومن الاختيار الفكري والسلوكي!!

قلت:

ـ أنا أعرفكم، أنتم أنا، أنتم مثقفوا هذا الوطن؟

قولي:

ـ المثقفون المغتالون!

وفي التفاتـة مني إلى الزنزانة المجاورة أغمضت عيني من هول ما رأيت:

كانت مضرجة بالدّماء، دماء أطفال ونساء وشيوخ، نساء مغتصبات، فتيات في ربيع العمر اغتصبن ونكّل بأجسادهن الضعيفة، لم أتكلّم ولم أسأل، لأنني كنت عاجزة عن السؤال، المنظر أكبر من السؤال، من الصدمة نفسها ومن الحقيقة التي خذلتني وأنا أسمعها وأراها بعيني.

ذهلت من هول ما رأيت، وإذا بصوت إحداهن ينتشلني من غيبوبة كادت تفقدني توازني ووعيي، قائلة :

ـ أنا سماح، وهذه وهيبة، وتلك نادية، وخديجة اغتصبن من قِبل رجال.. بل وحوش بشرية تأكل اللحم نيئاً، وأيدٍ ملطخة بالدماء تأكل الفواكه الطازجة، وفوق كل ذلك أعضاء من جسدك تقطع أمام عينيك، وأنت تصرخين ألما، لم يكن الاغتصاب والحمل وحدهما كافيين، أنا أقول لك الحقيقة التي تبحثين عنها.

تنطق واحدة منهن تسألني:

ـ ما شعورك بأن جسدك هذا، لم يعد جسدك، لم يعد ملكا لك، كنت جسدا لهذا، وذاك، وذاك، للآخر الذي امتهن كرامتك، ليالي وشهورا، وأنت هيكل بلا روح؟

تريدين أن تسمعي أكثر، ستخبرك سماح حكايتها وما وقع لها ليل نهار، انظري لها ولحالتها النفسية، كيف هي؟

ولأنّي أعرف حكايتها المأساوية لم أقترب منها، أدرت رأسي نحوها ثم انسحبت في صمت الجبناء، دون أن ترفع رأسها نحوي أو تنادي عليّ.

وأنا ألج الزنازين الواحدة تلو الأخرى عدّت بذاكرتي إلى الوراء، حينما التقيت سماح ذات يوم في مركز المعالجة

النفسية، ومنذ ذلك اليوم وأنا أتردد من حين لآخر على منزلها لأطمئن عليها وأواسيها.

حينما رأيتها للوهلة الأولى كانت تحرّك يدها باستمرار دون توقف، لفت انتباهي ذلك، حتى بدت لي أنها مجنونة وخفت منها، كانت سماح آنذاك تتوسط ركن الغرفة البنية اللون، بوشاح أبيض تلف شعرها المتدلي على كتفيها به، وبقربها سجادة حمراء موضوعة على أريكة بالية يعتريها غبار سنين التمرّد السرّي، وبجانبها مرآة قديمة مصنوعة من الخيزران الصيني منقوش عليها أزهار الخزامى العطرية.

سماح فتاة الشهادة وحلم الجامعة وسيّدة المجتمع الراقي، كلها طموح وإرادة لخوض معركة الحياة الصعبة، تحطمت أحلامها التي كانت تراودها منذ الصبا، وهي اليوم كما ترين، ذاك ما قاله لي طبيبها المعالج عندما زرتها.

كانت سماح تتذكر الرعب الذي سكن نفسها بحركة يدها التي لا تتوقف، وكأنها تدافع عن نفسها منهم.

منذ تلك اللحظة التي صعدت فيها بالقوّة نحو الجبل، وهي تستعيد شريط الذكرى أمام مرآتها المشروخة.

تبكي سماح بحرقة شديدة وهستيريا فظيعة، وأنا أحاول تهدئتها، كانت تقول لي:

لقد كنت بأثواب ممزقة وملطخة بدماء الاغتصاب، وصوت رجل الكومندوس مازال يدوّي في مسمعي مردداً:

ـ ألا تعرفين وجوههم؟ قال رجل الكومندوس. (يتراءى لها غاضباً في المرآة).

أرد وأنا أرتجف:

ـ كنت ملثمة؟

ثم يردف في غلظة قائلا:
ـ كيف، ستّة أشهر وأنت معهم، ولا تعرفين وجوههم؟
ـ كم كان عددهم؟
ـ ماذا كانوا يتكلّمون؟
ـ بأي لغة يتحدثون؟
ـ لباسهم؟
ـ ما نوع الأسلحة التي كانت بحوزتهم ؟
تضع سماح وجهها بين كفيها وتقلب مرآتها المشروخة حتى لا ترى وجهها الشاحب، ثم تعاود رفعها وتكمل شريط آلامها فيها فتتراءى لها كل الوجوه فيها، تقول:
ـ رغم كل شيء لم يصدقوني.
ترفع صوتها المبحوح بقوة الألم الساكن بداخلها وهي تقول:
ـ لا أعرف، لا أعرف.
حاولت تهدئتها مرّات عدّة، وأن الأمر قد انتهى وما تراه الآن هو مجرد أشباح، لكني لم أستطع، ثم تركتها على حالها تفرغ ما في نفسها من ألم، قالت:
ـ كان لباسهم يحاكي ثياب مدينة كابول وعددهم يفوق العشرة، لم يتكلّموا أمامي مطلقا فيما يفعلون أو يخططون، كل مرّة ننتقل من مكان إلى آخر، ليست بيوتًا من القرميد بل أعشاشاً تحت الأرض، يأكلون ما لذ وطاب، وأنا والأخريات كنّا للمتعة الجنسية.
من الأمير إلى أبسط سفاح عنده، زواج تقرره الجماعة وإيّانا أن نرفض أو نعارض؟
يحملق فيا قائلا:

ـ والجنين الذي في بطنك، ما قصته؟
ـ ما اسم أبيـه؟
كنت أردّ عليه مرتعشة، أتحسّس بيدّي بطني المنتفخ:
ـ هو الأمير أبو... لكن كانوا ستّة انتهكوا شرفي؟
تحبس دموعها الجارفة كالنهر وتروي حكايتها من البداية:
في إحدى الأماسي البائسة أمام مخرج الثانوية، توجه نحوي رجلان، وضعا شيئا تحت إبطي كحربة كادت تخترق أضلعي، وهمسا لي بالمشي معهما دون أن أتكلّم أو أصرخ، مشيت والخوف يقتلني، ركبنا سيارة واتجهنا دون معرفتي إلى أين، فعيناي معصوبتان ويداي خلفي مقيدتان؟ وكان أحدهما يقول لي:
ـ أين الحجاب يا فاجرة؟
ـ ولم لم تتوقفي عن الدراسة؟
ـ ألم تقرئي بياناتنا الحائطية؟
كان جسدها مضطربا كالدجاجة المذبوحة، تصمت برهة، تحرّك يدها باستمرار وكأنها تتأمل الوجوه التي كانت من حولها أو تتخيلهم أمامها بألبستهم المزركشة، والقلق والذعر يثقلانها عن الحركة حتى تجمد الدم في أوصالها.
أغمي على سماح من شدّة الصدمة وأمر الضابط بنقلها إلى المستشفى العسكري تحت المراقبة في انتظار مولودها؟
كانت سماح ترفض هذا الجنين الذي يسكن أحشاءها، وتحاول التخلص منه مكرهة، تحمل صور اغتصابها الوحشي، وكأن كلاباً مسعورة تمزق لحمها والدم يسيل من بين فخذيها، ولا أحد رق قلبه لوجعها وعذابها.

كانت الجراح تبتسم كالشروخ على كل مرايا جدران البيت المرتج من الاهتزازات العنيفة التي تصحب قوّة الانفجار في جسور الطرقات المتيجية.

تتأمل الأزقة الفارغة كأنها وجوه شاحبة، تنظر وهي تجر معطف الفضيحة، تحاول أن تلملمه، ترميه، تحرقه خوفًا من سكين يعانق نحرها أو رشاش يفرغ في جسدها ؟

الجنين ولد ميتًا، في ليلة مظلمة منتصفها كان نحيبها وأنينها، كان صمتها وخوفها من السراديب المغلقة، تتهاوى أمامها المدينة العتيقة، تسقط عنها أقنعة هتافات التغيير من أجل حياة أفضل، وأخرى للهروب إلى ما وراء البحار.

تشرب فنجان القهوة الباردة بتأنٍ، تنهمر من عينيها دمعتان حارقتان وتعضّ على شفتيها اليابستين وهي تخفي وجهها بين كفيها. تنتظر مصيرها ومثيلاتها الأخريات بنفسيات مضطربة، تهذي بكلمات مبهمة وقد فقدت السيطرة على أعصابها والتحكم في حركاتها، شلّت إرادتها، سلبت عزتها واغتصبت كرامتها لمّا مزق غشاء أنوثتها ومورست عليها كل طقوس الهيجان الجنسي بوحشية فظيعة أقعدتها رهينة الضياع، والعار يلاحقها من عين إلى أخرى ومن شارع إلى شارع ، وهي تردّد:

- من يتزوج بي؟

- هل العادات والتقاليد ترحمني وتسترني، وتغلق أفواه النسوة، وتغمض عيون الهمز واللّمز، وتعلن الزغاريد في بيتنا، وأرفع رأسي دون حياء...

و هي على حالها بين الحيرة، والحيرة الكبرى في أن تنشر صورتها والأخريات عبر وسائل الإعلام المختلفة، تجعل

من قضيتهن مصدر الشهرة والتشهير، والمطالبة بقانون يحميهن ماديًا، ومعنويًا، وتستغل الأوساط الدسيسة وضعيتهن للمكابرة والتكبير...

ترفض سماح الخضوع لكل هؤلاء الذين يحاولون جعلها لافتة أخرى تعلق عليها أطماعهم قائلة:

ـ ما جدوى الفتوى التي تبيح لي إسقاط ما في رحمي وإعادة حياة الغشاء وأنّ لا حرج في ذلك...؟

ـ أين كانت الفتوى يوم رفع السلاح وذبح إخوتي وبقرت ماشيتي وأحرقت زريبة أغنامي وبيتي ونكل بعشيرتي.

تعيد رفع مرآتها المشروخة وتحدثها في كبرياء مميت قائلة:

ـ من يعيد لي غشاء البكارة الذي فضته يد الإجرام ويمسح دموعي وأنيني؟

ـ من يعيد لي طمأنينتي وكبريائي، وثقتي بنفسي وبوطني وأهلي؟

ومن يعيد السلام إلى قلبي والسكينة، وهذا جسمي المترهل ينازع روحي ويصارع خلدي ويحول الواقع جحيمًا.

جراح عميقة وصرخات متتالية ترفض واقعا مؤلما، سجن رهيب بداخل سماح يسكنه خراب مميت.

تذرف سماح العبرات الملتهبة لتغسل بها مرآتها المشروخة عبر أنوثتها المطحونة وذاتها الممزقة، فجأة ترميها على الأرض، تتكسر، تسحقها بقدميها وهي تصرخ بعصبية قائلة:

ـ لقد ضاع كل شيء، أين عذريتي يا وطني وقد حملت جنيناً لا أب له؟

بل ستّة ذئاب بشرية مزقت جسمي باسم السلطة والعرف والدين وألبستني حجاب الذل والعار، وأقعدت أمي سجينة عيون الاتهام، ومات أبي بفاجعة الواقعة، وحمل اخوتي سلاح الأمن وعيونهم تتطاير منها شرارة الانتقـام من بني جلدتي الذين نصبوا أنفسهم أوصياء الشريعة بسفك الدماء وانتهاك الحرمات وبالحرق والتدمير.

الشارع مخيف، والمدرسة ملجأ القتلى، والأجسام الملفوفة في جلابيب الحزن مكرهة، تترقب بفزع صوت سيارة مفخخة، أو يداً خفية تمزق أشرعة الصمت الرهيب، والحذر في كل مكان..

وأصبحت سماح تعاني إلى يومنا هذا عقدة الانتماء...

تقول إحداهن وهي تصرخ في وجهي:

ـ هل مازلت تسألين وتبحثين عن الحقيقة؟

صفعني قولها، ومن شدّة الصدمة أغمي عليَّ؟ !

غابت كل الزنزانات والوجوه عن وعيي، وأحسست بغربة أفزعتني من جسدي، الذي لم يعد هو نفسه جسدي..!!

آه.. ما أشدّ الغربة عن وطن ترفضه بداخلك لمجرد أنك تريد العيش فيه، ويرفضك الآخر لأنك تريد الارتماء فيه، فعليك أن تختار بين الانسلاخ أو العودة، وبين الخيارين روح تتكئ على المغامرة مرّة هنا ومرّة هناك؟!

كنت أستوعب كل شيء، عدا أن أبقى غريبة أجوب تلك الزنزانات وأفتح النوافذ المغلقة، ويكبر الحلم مرّات ومرّات، كان العشق والحنين إلى الوطن أكبر من ذاتي فهزمني.

مـا أعظم أن يكـون لك تاريخ، تقف عنده ويذكـرك في كل خطواتك لكي لا تنسى؟!

تحسّست المكان بجانبي، وأنا أسبح في بركة من العرق والسخونة، أبحث عن الوجوه التي رأيت والزنزانات التي فتحت، فكانت مجرد حلم عشته، ما نمت إلاّ ساعات قليلة وكانت ساعات الحلم الذي انتابني أطول من عمري الذي خشيت عليه في لحظة راودني فيها الحلم، وتمنيت أن أستفيق وأنا أصارع بين لحظة الشعور واللاشعور، بين الإدراك واللاإدراك، ولكن لا شيء أمام سيطرة الحلم، كانت أشياؤه كثيرة، مؤلمة ومفرحة، كان صوتي يتلاشى في حلقي ويغيب عبر الممرات المهجورة والزنزانات الموصدة، فيعيده السكون إلي، وما كنت أسمع إلاّ صوتي يرد على صوتي!!

ـ أيمكن أن أكون قد جننت، أو قاربت، ولم ؟ !

كانت عندي رغبة في البقاء، كنت أكره الحياة، ولكن في الحلم كان تمسكي بها استحالة مميتة .

جمعت بعضاً من نفسي، فالبعض الآخر كان مشلولا، الدم تجمد في الأوصال، وتذكرت المشهد من جديد، بل مشاهد كل الزنزانات والنوافذ التي أجهدت نفسي لفتحها، ومحاولة الهروب من رياض الذي كان يلاحقني، لأول مرّة خشيت منه في الحلم!!

إنما الذي لا أنكره هو تلك العلاقة التي كانت تخفي حنين الإحباط وهالة من القداسة التي أساءت لي كثيرا، لم تمنحني إلاّ التشكيك، ومرارة الهزيمة في الحقيقة التي ابتلعتها على مضض.

تماسكت، وعدّت إلى أوراقي ورسائلي المخبأة بين طيّات الفراش، أتصفحها وأعيد قراءتها من جديد وكأني لأول مرّة أراها، لقد تقلص الزمن وصرت عاجزة عن فهم الحقائق،

والتفاصيل التي تركت فراغات في الذاكرة وفهم قيمة هذا الخراب الذي تبعثر بداخلي.

كنت متعبة وأنا أمشي، تذكرت لحظتها فكرة فوكو فكانت المواقف أقوى مني، ومن حيرتي التي تركتني أجهش بالبكاء، لأنني كنت أرفض الموت بهذه الطريقة، ولم أنس ما قاله لي الشهداء في الزنزانة، الثورة والوطن أمانة، فكان يبكيني نشيد "قسماً" وتخنقني العبرات عندما أعلن الرئيس تأميم المحروقات، وصرخ الشعب بالهتافات "تحيا الجزائر، تحيا الجزائر"...

أدركت أن قيام أي دولة يحتاج فقط إلى الرجال، وأصبحنا نبحث عن الرمز الذي يعيد إلينا الوطن المفقود؟

فجأة تذكرت رياض، وتذكرت حياتي معه، ورحت أعاتبه في شكل آخر قائلة:

ـ كل شيء كان معك عبثا، الكلمات وضرب الودع، عبث، البخور الذي أعبق به الغرفة الضيقة عبث!

التيه الذي وزّعني على وسائد الأحلام عبث، الفساتين الملونة التي اخترتها حباً فيك، عبث، عبث، ما أصعب الحبّ معك.

سأظل أكتب إلى أن أصل إلى حقيقة الأشياء، مستسلمة للقطيعة التي كبلتني، والحياة تكون أتفه عندما تعطينا رجلا مبتور الرجولة، يشرف على قتل نفسه بدون سلاح ويبقى فريسة أفكاره المميتة؟

أكثر من هذا أنت لا شيء، حطام النهاية، تمتطي صهوة جواد هزيل، فلقد قلت لك ألف مرّة:

ـ الوطن أكبر منا، أكبر من حساباتنا الضيقة، ووطنيتك ووطنيتهم المدسوسة؟!

يضيق صدري ويصغر جسدي عندما تكون الصحف حبلى بالفواجع، لم تكن تحتاج إلى البحث عن الأخبار أو توزيع المراسلين، كانت وطاويط الليل وحدها تكتب بالأحمر الفاقع على صفحاتها الأولى، تسجل في ركض متواصل غلطة التصادم، وكنت أنت دائما تصغر وتصغر، وأنا أرتعش من الخوف لأنني اكتشفت حقيقتك وحقيقة الدماء متأخراً.

ـأيعقل أن يدغدغ الحبّ قلبك وتقتل، يا لي الخيبة؟

ـ ما الذي حدث طول السنوات الماضية؟

ـ ما الذي غيَّرك ودفع بك إلى التنازل عني..

ـ هل يمكن للسياسة، وكلام الحزب أن يتركك تدير وجهك عني!

ربما أشعر أنك على حق، ولكن كيف يكون عمري بعدك، على رصيف عمر من الانتظار تتركني وتنسحب ..

كنت أرتعش من هذا الانهزام الذي سكنني، من فكرة سيطرت على عقلك، وركضت وراءها من أجل الحلم والوطن الموعود ..

كشفت سلطة العشق لدي أنك تدعي الحكاية وأنني لا أجيد حبك الأدوار أمام تهمة خيانة الوطن والأرواح، فأنا ضعيفة حدّ البكاء أمام كبرياء الوطن؟

كنت أعيش قصة حبّي بكل الأشكال، آه ماذا أفعل بك الآن وقد أصبحت كل الحقيقة التي كنت أبحث عنها في الحقائق الأخرى!

لا أتذكر من دهشتي غير أنك كنت أستاذي في العشق، درَّستني حروف الحبّ بإتقان وكنت التلميذة في كبريائي، إنني أشعر بمسؤوليتي في أفكارك المتطرفة الآن، وفي خطاباتهم الرنانة التي صدقتها يوما ما، وكل الطعنات التي غرزتها في أجساد بريئة تركتني اليوم أعيد النظر في حساباتي.. وأعترف بمسؤولياتي !

obeikandl.com

– 9 –

تركت الرسائل والأوراق مبعثرة على الطاولة، ورحت إليه في نفس الغرفة الضيقة، دفعت الباب بقوّة لعلني أجد من كنت أبحث عنه دوماً في أفكاري.

وجدت شبحاً يحدّق بإحباط إلى النافذة المطلّة على الشارع الكبير، وأنا التي صدقت نفسي يوماً أنه ملك لي، فما وجدت إلاّ أشباه رجل محطم .

كنت أرفض هذا الرّجل الذي بداخله، أو يدعي أنه رجل؟

كنت أسأله بأعظم صفات الله أن يجعل راحة بالي في قوله، عن كل جرم كتمه، وكل سيئة لم يأمر بإحباطها ..

كنت أحاول أن أكتشف كذبه ويبدو أن الوسيلة لذلك هي مصل الحقيقة[21]، مخدر ألغي به شعوره وانتزع الحقيقة منه فيقوم بإحباط عمل بعض مهام العقل البشري فتجعله إنسانا ثرثارا لا يتملكه الخوف ويبوح بكل شيء .

صعب أن أنزع الاعتراف منه بسهولة، وكم كنت أوّد أن أختصر الأسئلة التي لا أرغب في سماعها..

---

[21] مصل الحقيقة لعالم التخدير الأمريكي ت . س. هاوس.

فالاختصار يجعلك ترفض التورط في الاستمرار، يزيح عنك الغبن من أنك توّد التجرد من الوعود التي تبقيك دائما محل الآمـر؟

لأن إجاباتنا هي التي تورطنا، وتفضحنا أحيانا كثيرة، إجاباتنا هي التي تضعنا في مستطيلات تطول وتطـول، أو مربعات تضيق وتضيق، وشتّان بين الطول والعرض حينما تدرك أنك يوما كنت تشبه المستطيل في طوله، تصول وتجول فيـه كما تشاء إلى أن يورطك اختصار الطول في مربع يضيق بك حتى يكاد يقبض على أنفاسك، وتبقى رهين أضلاعه الأربعة التي تورطت في صنعها بنفسك، فيشتّد حبل الألم وتلفه حول رقبتك بإدانـة لا يمكن غفرانهـا؟

كل أحلامي انكسرت وبقي الحلم يقتلني، وبقي هو مقبرة كل خطواتي!

يراودني الضعف حينا، والكبرياء في انتزاع صهـوة الانتظار، وأشياء أخرى تصعب فيها المقاومة، فأفتش عبر سنين العمر معه عن تضاريس وجهه، وكيف جعلت أخاديد الزمن منها مسرحاً للحزن والألم والتعاسة .

أرفضه لأنني كنت بحاجة قوّية إلى من يحتويني أنا، كلّي، دون تذمر من أفكاري، من منطقي الذي يورطني أحياناً كثيرة، ويجلب لي الخصام المتتالي مع نفسي، يحبّني لذاتي، ولكبريائي الطفولي في كبرياء الوطن الذي مازال يسكنني..؟ !

وأرفضهم لأنهم صادروا أحلامي، وسرقوا حياتي بكذبة جميلة، ومارسوا علينا التضليل باسـم الشرعية، والتاريخ والرجال و.. و.. وبقينا رهينة الماضي والحاضر والمستقبل المجهول؟

أرفضهم، لأنهم وببساطة زيفوا الحقيقة، واغتالوا فينا الوطن الأم؟

وعدّت أدراجي من حيث أتيت باغتيال الحقيقة قبل ولادتها. فكانت هي السّوط والصّدى....!

انتهى

obeikandl.com

السيرة الأدبية

الكاتبة عائشة بنور، (الجزائر).
ـ تكتب القصة القصيرة والرواية منـذ نهاية الثمانينات من القرن الماضي، مارست الكتابة الصحفية في العديد من الجرائـد والمجلات الوطنية والعربية وأسهمت بمقالات ودراسات حول قضايا المرأة والطفل..(الرافد، مجلة أنوثة، مجلة المعلم، الموعد الجزائري...)
ـ نشرت العديد من قصصها عبر الصحف الوطنية والعربية والمواقع الالكترونية.
ـ شاركت في العديد من الملتقيات الأدبية (الملتقى الوطني للأدب بسعيدة مارس 1991، الملتقى الثالث للأدب بمليانة1991 .... الملتقى الأول للأدب والسياحة بحمام ملوان 2000...)
ـ ساهمت في العديد من المؤلفات منها (موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، موسوعة الأمثال الشعبية ..الخ
الاصدارات الأدبية:
ـ نساء يعتنقن الإسلام (دراسة) نشر دار الحضارة 1996.
ـ الموؤودة تسأل.. فمن يجيب؟ (مجموعة قصصية) دار الحضارة
. 2003

obeikandl.com

- مخالب (مجموعة قصصية) نشر جمعية المرأة في اتصال 2004.
- قراءات سيكولوجية في روايات وقصص عربية (الطبعة الأولى عن دار الحضارة 2004 ،والطبعة الثانية عن دار الحبـر2007.
- السوّط والصدّى (رواية) نشر وزارة الثقافة 2006.
- اعترافات امرأة (رواية) 2007 (طبعة خاصة في إطار تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، نشر دار الحبر).
- سقوط فارس الأحلام (رواية) 2009 دار نورشاد (الجزائر، ط1)، (ط 2) عن منشورات نيبور العـراق 2015.
- اعترافات امرأة (رواية)، الطبعة الثانية عن منشورات الحضارة، وترجمها إلى الفرنسية الأستاذ محمد سحابة بعنوان confession d'une femme (Roman) وصدرت عن دار الحضارة 2015.
- قصة أبو راس الناصري (للفتيان).
- سلسلة حكايات جزائرية رفقة الأديب رابح خدوسي: (الشيخ ذياب - لونجا - بقرة اليتامى - بنت السلطان - الأميرة السجينة - الفرسان السبعة) عن دار الحضارة، وعن اتحاد الكتاب العرب بدمشق مجتمعة تحت عنوان بقرة اليتامى وقصص أخرى 2001، كما ترجمت إلى الفرنسية Contes Algériens وصدرت بباريس عن دار النشر Edilivre 2015.
- اعترافات امرأة (رواية)، الطبعة الثالثة عن منشورات دار النخبة، (مصر) 2016.

ـ نساء في الجحيم (رواية) الطبعة الأولى عن منشورات الحضارة 2016، والطبعة الثانية عن منشورات دار النخبة، (مصر) 2017.

- ونالت الجوائز الآتية:

ـ جائزة الكاتب الناشئ (قصة السفينة) لجريدة الجمهورية الأسبوعية 1993 .
ـ جائزة مديرية الثقافة للقصة القصيرة ببومرداس 2003.
ـ الجائزة الأولى في المسابقة القصصية للموقع الالكتروني مجلة أقلام الثقافية سنة 2006 عن قصة أنين عاشقة.
ـ جائزة " فوروم" نساء البحر الأبيض المتوسط بمرسليا ـ فرنسا ـ 2002م عن قصة عذرية وطن كسيح و ترجمت إلى اللغة الفرنسيـة .
ـ جائزة الاستحقاق الأدبي عن رواية اعترافات امرأة، دار نعمان الأدبية بلبنان 2007.
ـ جائزة مسابقة القصة مجلة الابداع العربي، 2015 عن قصة زهـور زيراري.. الشاعـرة السجينة.
ـ جائزة مسابقة منتدى المثقفين في أمريكا وكندا عن قصة الفتى العكّاوي 2016.
ـ الجائزة الأولى دوليا في مسابقة أدب المرأة عن هيئة اتحاد الأدباء بالولايات المتحدة الأمريكية ماي 2017.